لماذا نحن مسلمون يا أمي؟

www.ebibliomania.com

+201065534541
+201208868826
fb.com/Books.Bibliomania/
بيلومانيا للنشر والتوزيع
fb.com/bibliomania.eg/
Insta:books.bibliomania/
Books ـ بيلومانيا
fb.com/groups/Bibliomania.Books/
@BibliomaniaEg

لماذا نحن مسلمون يا أمي؟

روايةِ

زينب بوحنيك

المثقف للنشر والتوزيع
ببلومانيا للنشر والتوزيع

ببلومانيا للنشر والتوزيع

نوع العمل: رواية

اسم العمل: لماذا نحن مسلمون يا أمي

اسم المؤلف: زينب بوحنيك

تصميم الغلاف: فريق ببلومانيا للتصميمات

تدقيق وتنقيح/ ببلومانيا - المثقف

رقم الإيداع: 25774 /2017

الترقيم الدولي (ISBN) : 978 - 977 – 6607 -30- 9

الناشر / دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

المدير العام / جمال سليمان

تليفون / 00201065534541- 00201208868826

صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

الطبعة الأولى 1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع

محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ

أو التعديل إلا بإذن من الناشر.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

الإهداء

إلى المستضعفين من الرجال والنساء والأولاد

الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا.

إلى المسلمين من مشارق الأرض إلى مغاربها..

إلى "مسلمي الروهينجا خاصة"،

إلى كل القراء بما فيهم أنا.

زينب بوحنيك

كانت قرية آمنة تنعم بالسلام والقوة، يحميها أهلها بما استطاعوا من قوة،بعدما افتُكت من أيدي مغتصبة، لكن ما زرع فيها من حقد وفرقة كان دسيسا، لا يذوب، غرس غرسا،أو قل رُضِع مع لبن الأمهات...

لم تكن كغيرها من قرى العالم المشهورة، رغم جمالها الخلاب وما تتمتع به من جمال المناخ، أو بالأحرى لا يعلم عنها أحد خبرا،لا بترول ولا زيت بالعلن، معزولة عن العالم بما فيها من أخبار، جميلة أو سيئة...

يعيش فيها قلة من الناس، لم يصلوا إلى مستوى الحضارة بعد ولا اقتربوا منه لكنهم آمنين إلى حد ما، يقتاتون مما تنبت الأرض ويشربون من وديانها..

هذا مختصر عنها مما قاله التاريخ، فالتاريخ يكتب نفسه في صفحات يقرأها الذاكرون، ويشير أحيانا للناس قائلا: ها أنا ذا، اقرأوني، انظروا إلى أهم أعمالي، تعلموا مما كتبت! أنا لا أكتب على الورق فقط، ولستُ من يكتب على الورق فقط، بل أنا موجود في كل مكان، على أوراق الشجر، فوق الأرض وتحت الأرض، في أعماق البحار، وفي الغابات وبين الجبال، وحتى في قلوب الناس وذاكراتهم، ابحثوا عني ستجدونني في عدة صور..

لكنه رغم ذلك لم يستطع أن يوصل آياته لعمق فهم الإنسان فالغشاء الذي بين الفهم والعقل يزداد سمكا يوما بعد يوم، لأن بعض الناس لا تريد أن تستفيق، بل تريد أن تنعم بالأمان الذي ضحى من أجله أجدادها يوما، أو أن تكون آمنة ولو على حساب البعض منها..

كتب التاريخ كثيرة، لكننا علمنا القليل، وما اتعظنا منه كان أقل، فهذا ما علمناه عن القرية لم يكن بعد بحث طويل في صفحات كتاب التاريخ، بل بعد أن استبدل الأمن بالخوف فيها، فقد كانت آمنة، إلى أن حل البلاء، لا ندري ربما هو ابتلاء؟!

وقد تكون القطرة التي تفيض الكأس، أوالعسرة التي يليها اليسر،هكذا هي الحياة..

يقال دوام الحال فيها من المحال، والشدة جزءا من دوام الحال.

وربما كان هذا سببا، وربما خطئا وربما وربما...

يكون البلاء والابتلاء في عدة صور.

يجب على الإنسان أن يتأمل، أن يبحث، أن يفكر، أن يستخدم هذا العقل، أن يربط الأحداث، أن يجلس لنفسه ويحدثها، يعاتبها ويشكرها إن أذنبت أو عملت خيرا...أن يتخذ من الطبيعة مفتاحا لمشكلاته، ونمطا لحياته، أن يقرأها

ككتاب يحمل حكما، أمثالا وروائع...أن يعزف بأوتارها لحنا خاصا به، وبما يعتقد، أن يقول ها أنا ذا، أختلف عن هذا وذاك.

وأحيانا يقول: عما كنت ما شابه أمس يوما بعده، ولا يوما قبله، ولا يعيد التاريخ نفسه أبدا، فالناس تتبدل، وكلها تنقص من أعمارنا...

أن يتعلم الإنسان من تعثراته، أن يقف بعد كل سقوط، أن لا يسمع ما يقال دائما ويتخذه سبيلا.

يخيل للناس دائما أن الغني في راحة، وأن الفقير مسكين معتر، يخيل للوسطيين أن المتعلم ورع، وأن الجاهل متنزه عن معارك الحياة الهادفة.يخيل للمسلمين أن غير المسلمين أهل للنار، ويخيل لغير المسلمين أن المسلمين أعداء ويجب قتلهم، يخيل للمريض أن ذو الصحة في نعيم، ويخيل لذوي الصحة أن المرض يدفع للهمة... وأكبر هفوة أن يخيل للصغير أن الكبير قادر على كل شيء، وأنه القدوة ويتمنى أن يكبر ليكون مثله، وهو لا يدري أن الكبير يتمنى لو عاد صغيرا، لو يعود للعب يوما، لو تعاد طفولته له ليلعب أكثر ويتمرد أكثر، بل ليبكي أكثر، كلها مجرد اعتقادات...

هكذا هي الحياة عبارة عن معترك من الأفكار، عن تصورات لا متناهية، في تمثلات متناقضة، عن نظام معقد، كلما أعلنا أننا فككنا رموزه وجدنا رموزا أخرى أصعب وأدق.

يقف بعض الشرهين على هاته المنعرجات غير الواضحة للأفراد والمجتمعات ليتخذوا منها مطية لتحقيق أهدافهم الجهنمية مستغلين موقف هؤلاء من الحقيقة الواضحة، يمتطون على ظهور ضعفهم فيوجهونهم حسب وجهتهم ويحققون بهم أهدافهم، فيهلكون على أساس معتقد خاطئ يعتبرونه صحيح.

لكن، لكن ذو العقل من يغوص في ذلك بحثا عن حقائق مقنعة، تشبع الجوع العقلي وتروي الفضول المتعطش للمعرفة، للقناعة بما يدور حوله، لتكسبه الثقة فيما يقوم به ويتحرى فعله من غيره.

أن يبرر مواقفه لمن يصلح وأن لا يهتم لما يثار حوله من بلابل، فالناس تتحدث فيما تعلم وما لا تعلم، بل الناس معادن، وأفكارهم كذلك، فيها ما يصلح وما يستصلح، وفيها ما يجب القضاء عليه واستئصاله..

يفسر العديد من الناس أن معارك الحياة أزليه لا تنتهي، ويفسر كل منهم أسبابها من منظوره، بحسب مصدر معرفته، ومكانته التي يقف عليها ليرى،

ليأتي اليوم الذي تظهر فيه الحقيقة فيصدم البعض من تناقضها مع ما كانوا يتوقعون، ويفرح البعض بتوافقها مع ما كانوا يتوقعون.

ترى فترة الصغر لها دورها في حياتنا ولأسرنا وللمجتمع الذي يحيط بنا.

ما يرسم فيها وهي بيضاء يؤثر فينا وبقوة، فدورة الحياة والتسلسل الذي يفرض نفسه على حيواتنا، والحياة التي يعطيها لنا المجتمع تورث فينا بعضا من طبائعه التي لا تمحى، فنموت ونحن نملكها ونورثها أحيانا لغيرنا.

ومهما تطور العلم تجد الجهل يلازمه في أماكن أخرى، ومهما تطور العلم يبقى إيصاله للغير بنفس التصور أمر صعب ما لم نجد طريقة لذلك، فهو كما يقال سلاح ذو حدين!

يجدد تراتب الموت والحياة المجتمعات، فترى البعض يتحرر من قيم يظنها رثة، والبعض يتمسك بقيم يراها الأنفع، فتختلط الأوراق وتعم الفوضى في غياب ذوي السلطة، وأهل الثقة، فقد عاش البشر في صراع مذ خلقوا، كانت أول قصة فيه (بين هابيل وقابيل ابني سيدنا آدم) حزينة جدا..

كانت بداية لحياة لا تخلوا من الألم، من الفراق، من اختلاف الآراء، من إدراك معنى الحق، وكان القتل فيها رمزا، فأصبح الصراع جزءا لا يتجزأ من هذه الحياة، يجدد أحيانا العلاقات، ويهدم أحيانا الصلات، لكن هناك فكرة لا يمكن

خطئها مفادها أن البعض يصارع من أجل الحق والبعض يصارع من أجل الباطل، وإلا فلم الصراع، والسؤال الذي يطرح نفسه:

كيف يتمكن أهل الحق من معرفة أنهم على حق؟

أو كيف يعرف أهل الباطل بأنهم مخطئون؟

أو كيف يمكن تفادي الخسائر في مختلف صورها من كلا الطرفين؟

أو بالأحرى ماذا لو كان يرفض كلا الطرفين الاعتراف أو التنازل؟

ليس الحق دائما ما التف حوله أكثر الناس، قد يكون العكس، لكن أن يلتف الناس حول خطأ وهم يدركون أنهم على خطأ هذا هو المنكر بعينه، بل النفاق في أرقى صوره!

تعتبر النفس البشرية من أرقى المخلوقات على وجه الخليقة، ليس لجمالها ولا لقوتها، بل لما تمتعت به من عقل مكنها من كسر غور المكنونات ومعرفة قوانينها، بل لأنها ستقف يوما ما أمام خالقها لتعرض ما قامت به فترة بقائها على وجه الأرض. هذا ما تمليه كل الشرائع السماوية، بترتيب الكتب:

الزبور، التوراة الإنجيل والقرآن..

كان على أصحاب الشرائع السماوية أن تلتف حول بعضها باعتبار مصدر شريعتها واحد، لكنهم اختلفوا!

كان عليهم أن يتفقوا حول طريقة للعيش تجمعهم دون التدخل في شؤون بعضهم البعض فالحياة اتفاق، لكنهم تصارعوا!

كان يجب أن يتفق أهل كل شريعة بما يدينون، فدينهم واحد، لكنهم تفرقوا، وكانت الأخيرة شر بلية وقعوا فيها!

كان على أصحاب الشرائع السماوية أن يقفوا ضد البدع الخرافية والديانات المبتدعة، تباعا لما عرفوا من حق في كتبهم، فرغم تحريفها لازالوا يدينون بها، والقرآن يوضح أكثر.

ساهمت الفرقة في نشر الضعف، في انعدام الأمن، في ضياع الأنفس البريئة،الفقهاء، العلماء والأدباء، وكثير من المعتقدات، في فقدان الثقة، في ثوران الغضب الشعبي، في انتشار القتل والجرائم بمختلف أنواعها، العادات والسلوكيات المرضية غير السليمة، عودة بعض السلوكيات التي ظن المجتمع يوما أنها انقرضت، وظهور أخرى جديدة مبدعة لا صلة لها بما يدين المجتمع، ولا صحة ولا صدق البتة، وعم الجهل كنتيجة،

وكانت أسوأ هذه النتائج القوانين الوضعية التي لا تخلو من نقائص، فقد ساهمت بدورها في نشر العدوانية القاتلة، استباحة المحرمات التي تتنافى والإنسانية التي اتفقت عليها الدول جمعاء ككذبة تحرمها على بعض الدول وتحللها لأخرى،

لكنها تحرمها على الأفراد كأفراد مواطنين كقانون صادق، لكنها لم تفلح في ذلك، وربما لم تكن لها القدرة لصد ذلك، وربما تعمدت ذلك، هذا ما حدث مع قريتنا الصغيرة التي كانت آمنة يوما.

القرية التي عانت ولا تزال تعاني في صمت، يحيط بها الخوف من كل مكان..

استيقظت القرية صباحا على صراخ عظيم، لقد أصبح الأمر معتاداهذه الأيام، إن لم يستيقظوا عليه ربما لن يستيقظوا سيبقى الظن أن الصباح لم يحل بعد، وما أحسن حظ من راقت له نومة أو أغمض له جفن في ليلته، لكن صراخ اليوم طال، استيقظ الكل مذهول، فزع!

تبحث كل أم عن أكبادها، وكل أب عما يحتمي به، ويختبئ من اختبأ، ويهرب من هرب، ويذهب للنجدة من يذهب، هكذا يصبح حالهم كلما سمعوا صراخا، أو رصاصا يضرب!

وفجأة سكت الصراخ، لكن الفوضى لا تزال عارمة بالخارج، كأن الكل التف حول الحدث..

يسأل الابن أمه في فجع بعدما أحاط بها كما تحيط العنكبوت بفريستها:

- ماذا هناك يا أمي؟

تجيبه بعدما اختطف لونها، بعدما ضمته لها، تشمه تعتقد أنها الضمة الأخيرة:

- لا أدري يا بني!

تنظر إليه بخوف تفكر برهة ثم تأمره:

- تعال إلى هنا، من هنا بني، إلى حيث اعتدت، أرادت أن تخبئه في مكانه المعهود..

يصرخ بارتجاف، بعين تكاد تدمع، وخوف لا يماثله خوف:

- لا، لا يا أمي أرجوك، خذيني معك، لا تذهبي، لا تتركيني هنا...

لم يكن يرفض لها طلبا مماثلا، لكنه اليوم رفض، ربما كان لصدى الصوت تأثير عليه، لقد كان مستجديا، حزينا، مليئا بالألم..

- لا بني سأعود إليك، أعدك لن أتأخر!

- آه أمي، لا لن تذهبي، سأذهب معك..

كأن هذا الولد كبر ولم يعد مطيعا، ليته لم يكبر وبقي كسابق عهده تسكته أمه بالرضاعة فينام بسلام، أو يرتمي في حضنها كلما رآها تمد يديها نحوه، لكنه كبر وبدأ يتمرد على قراراتها التي تصدم فضوله ورغبته الطبيعية في استكشاف ما حوله..

تعيد مقالتها:

- تعال بني بسرعة!

بتعنت:

-لا لا، لا أريد يا أمي، أريد أن أرى ما الذي يحدث؟ خذيني معك، أرجوك!

تترجاه:

- إنك صغير يا بني يجب أن أحميك أرجوك ادخل هنا، وتشير إلى مخبئه المعتاد، سأرى ما الذي يحدث وأنقذ ما استطاعت يداي فعله وأعود إليك..

رد ولم يزل على إصراره، يرفض التنازل، هذه هي عاداته منذ بدأ يعي، لكنه لم يعتد الإصرار على الخروج، ربما يريد أن يكبر بسرعة..

- لن أفعل إما سآتي معك وإما أن تبقي هنا!

- لا تفعل هذا بي بني!

آه ليس لديها وقت أكثر مما ضاع، استسلمت لأمره!

لم يعد الابن المطيع، هذه هي الطفولة فطرتها سليمة، بريئة، تحب الحرية والمخاطرة، الاحتماء بالوالدين حتى لو كان مسيرهما نحو الخطر..

يعتقد كل طفل أن وجوده بين يدي والديه هو الأمان حتى لو كانا في خطر، يتعلم الطفل في هذه المرحلة بالمحاولة والخطأ، بالإحساس والتقليد، يجب أن يفهم بحسه لا بعقله الذي لا يزال لم ينمو بعد.

أخذته معها، ليس لديها أي وقت لمناقشة ما يجب أن يكون أو ثنيه عما يعتزم، ربما عليها الهرب يجب أن تعلم ما يحدث بالخارج.

خرجت وهي تلملمه تمسك يده بيد وتضع الأخرى على عينيه تخشى أن يكون المنظر بشعا مريعا، هذه هي الصور التي يراها الأطفال عادة في هذه القرية منذ حل بها البلاء، لكنها لا تريد أن يرى ابنها منها شيئا، ربما سيزعج طفولته البريئة، وعقله السليم، وربما سيغير رأيه في الحياة.

هناك مناظر ترتسم في الذاكرة منذ الصغر، ربما تلتصق دون معاني لكنها ترتسم، يعيها الطفل بعدما يفسرها الكبار في مرحلة عمرية ما، وربما يفسرها وحده بأخطائها، وهو ما يولد أمراضا عدة، نفسية وجسدية كالرغبة في الثأر والانتقام، أو هيستيريا الخوف والتأتأة والبلوغ المتأخر..

لا تعلم هي ذلك، فهي لم تدرس لكنها تفعل ذلك بفطرتها السليمة، تفعله من خوفها المستمر، تفعله مما جربته وتجرعته من مرارة، فهي أيضا تحمل في داخل ذاكرتها صورا أليمة عما يحدث هنا أدخلتها في حالة مرضية جعلتها تبتكر أماكنا لتخبئ فيها ابنها الصغير الذي لا يحتمل ذلك، دون أن تفكر في عظم ما تقوم به.

بعدما خرجت، وبينما تقترب من مصدر الصوت تفاجأت بحريق مهول في بيت الجيران، أو قل "عش الجيران"، يرهب الناظر إليه، تعلو النار وتعلو، وتتساقط

الأغصان والخردوات التي صنع منها الكوخ أرضا، وتتصاعد ألسنة الدخان السوداء تعلن احتراق حتى المواد البلاستيكية!

لا تفرق النار بين ما يحترق وما لا يحترق، تأكل ما حولها دون رحمة، ليتها كانت تبرد كلما قلنا كوني بردا وسلاما، لكنها تمشي كأن لها أقدام، وتنتشر بسرعة كما ينتشر الذباب على الجيفة، لا تنطفئ مادام الأكسجين يجول في الهواء، لا تخشى لا الرمل ولا الماء، تعاند لآخر رمق وتترك الجمر لعلها تعيد الاشتعال، كأنها تحب الحياة أكثر من البشر، صحيح الخلود للقوة، لكن الحق غالب وإن كان ضعيفا سيقوى مع الزمن.

حاولت الأم إغماض عيني ابنها وإعادته للمنزل لكنه رفض وبشدة، يريد أن يرى ما يحدث، لم يعد صغيرا، يريد أن يتطلع لهذا العالم رغم ما فيه من مناظر تزعج حتى الكبار، إنه يريد أن يكبر وبسرعة، لا كي يرى فقط بل ليفهم أيضا، فعدم فهمه لما يحدث أزعجه كثيرا..

لماذا اشتعلت النيران وكيف؟

من الذي كان يصرخ؟

لماذا تحاول هذه الأم حمايتي دائما ومما؟

لماذا لا تريني الشارع إلا قليلا؟

لماذا؟ ولماذا؟

استسلمت الأم وكأنها أدخلته في المجال من أبوابه الواسعة واندمجت في ما يحدث كأنه معتاد على ذلك قائلة:

- أسرع يا بني يجب إحضار بعض الماء، ساعد الجيران إنهم يحاولون إطفاء النار، يجب أن ننقذ ما استطعنا من الجيران... وذهبت مسرعة بعدما تركت يده تأخذ من إحدى جاراتها دلاء الماء تصبها على المنزل المحترق وتعطيه للأخرى كي تملأه من جديد..

كان يجب أن يكون هذا التضامن والتعاون من أجل تعمير الوطن من أجل الرقي والتطور، لكنه كان للحفاظ على حياة من استطاعوا إنقاذه، فقط من أجل تأجيل الموت ليوم آخر، بالرغم من أنها لم تكن بأيديهم، يا لها من حياة تفوح بين ثناياها جثث الموتى المغدور بهم.

أما الابن فمن خوفه لم يقترب، لهيب النار يلسع الأوجه، وروائح المحترقات تسد الأنوف، ابتعد حيث وجد أقرانه، لقد وجد أطفالا من سنه ألفوا اللعب معه تعلو سمات الهلع على وجوههم.انضم إليهم وسألهم كأنه لا يرى الذي يحدث:

- ما الذي حدث؟!

فأجاب أحدهم وأصبح في لحظة المتحدث والشاهد الوحيد على الجريمة البشعة، لكن من سيصدقه غير أقرانه؟ وإن صدقوه هل سينفع؟ ومن سيتخذه كشاهد على جريمة يجب معاقبة فاعلها؟ وهل حقا سيعاقب فاعلها؟ عليه فقط أن يحكي ما حصل لأقرانه ربما تصبح قصة مألوفة بينهم هذا أكثر شيء يمكنه فعله بشهادته، رفع يديه وفتح فاهه وعينيه يعبر عما رأى وكأنه يحكي عن حرب بين دولتين عظيمتين:

- لقد رأيته، أقسم بالله أني رأيته يصب بنزينا وأشعل النار، ثم هرب، لم يكن وحده لقد كان معه صديقه ينتظره هناك بدراجته النارية، ولما اشتعلت النار وهب لهيبها فر بهذا الاتجاه وأشار بيده لطريق ملأته رسوم عجلات الدراجات وآثار الأقدام.

فسأله الابن كأنه محقق:

-هل تعرفت عليه؟ هل رأيته من قبل؟ هل تشاجر مع جارنا أو أحد أبنائه قبلا؟ يا لها من أسئلة بسيطة منطقية، تناسب عقله البريء، هذه هي الأسباب التي يجب أن تكون لهكذا معاملات بنظره، نعم لها أسباب لا يمكن لعمل شنيع كهذا أن يكون دون أسباب لكنه يجهل كل ما يدور حوله.

لكن الطفل أجابه بجواب لم يرضِ فضوله:

-لا لم يحدث شيئا، فقط أطل من بين جدران الكوخ، لما وجدهم هنا، أشار لزميله بنعم ثم سكب البنزين وأشعل النار، أردت أن أصرخ لكنني خفت من لهيب النار وهربت أخبر أمي.

لقد سمعت محمد وعمر وليلى وخديجة يصرخون بصوت عالي: أمي، أمي، أبي،أبي...

أنا أشتعل، أنا أحترق، أنا أموت!!

ساعديني يا أمي...

وأمهم تجيب، ابنتي تمسكي..ابنتي من هنا.. قفي عزيزتي، لقد أحرقونا، النجدة أيها الجيران، ساعدونا... وكذا أبوهم!!

لكن لم يخرج منهم أحد صمتوا بعد مدة ليست بالطويلة من الصراخ، بقي فقط صوت لهيب هذه النيران وسقوط أشلاء الكوخ بعدما وصل اللهيب أعلاه وأحاط بكل الجوانب في أقل من دقيقة، وانظر إلى الرماد الآن لقد حرق البيت عن آخره، أظنهم احترقوا جميعا!!

رد والحيرة تملأ وجهه والقلق والخوف:

- وما الذي فعلوه حتى يقتلونهم بهذه الطريقة؟ لِمَ لم ينقذهم أبوهم؟ أكان عاجزا؟ لماذا لم يلحق بهم أحد؟ كيف تجرؤا ودخلوا القرية؟ بأي اتجاه هربوا سأقتلهم جميعا!

رد عليه كأنه رغم صغره ألف الحياة بمرها:

- ليس عملهم الأول هنا، أين كنت؟ لقد خربوا العديد من القرى والبيوت وحتى المساجد لكن لم يمنعهم أحد، كانوا فقط يصرخون والبقية ينظرون من بعيد متخفيين حتى إذا ذهب الطغاة خرجوا لينقذوا من أنقذوا ويضيع من يضيع حرقا أو موتا بالرصاص أو تعذيبا، وأحيانا يأخذون معهم من الرجال والنساء والأطفال ليعذبوهم بعيدا.

فقال: وهل أحرقوا المساجد؟

- أجل المساجد أيضا.

الفتى: وما المساجد؟

رد بغضب: تبا ظننتك تعلم تلك التي نصلي فيها صلواتنا الخمس ونتعلم فيها الدروس.

- آه لم أسمع بها لم نذهب أنا وأمي لزيارتها بعد، لكن لمَ أحرقوها ومن يسكنها؟

- أحرقوها لأننا نصلي فيها ولا يقبلون ذلك!

- لمَ لا يواجههم أحد أو يتدخل؟

- لأننا لا نملك سلاحا مثلهم ولا الجرأة التي عندهم، يغطي الجبن معظم كبارنا والعجز نساءنا.

بينما الصغار يتبادلون أطراف الحديث جاءت أم الفتى تجري بهلع وهي تبكي، تغطي وجهها آثار الرماد السوداء وبعض ثيابها كأنها كانت تسبح داخلها، ولما رأت ابنها مسكته قائلة:

- يا إلهي بحثت عنك ولم أجدك، أنت هنا الحمد لله أني وجدتك، خفت ألا أراك ثانية، تعال معي يجب أن نذهب إلى المنزل.

سألها متحيرا: لمَ البكاء يا أمي؟

ردت بصوت حزين: لقد ماتوا جميعا بني، لقد احترقوا، لم يبقَ منهم أحد، لم نستطع حتى جمع ما تبقى من رفاتهم المنظر لا يطاق بني!

سألها: من قتلهم يا أمي؟

ردت كأنها لم ترد: هم يا بني، هم من قتلهم، الغدارون!

سأل مجددا: من يا أمي تحدثي أرجوك؟ أتعرفينهم؟

- لا، لا أعرفهم لكنهم يهاجمون قريتنا دائما، يريدون قتلنا جميعا!

انفجر الأطفال بالبكاء من هول ما سمعوا!

لكن الولد كان ثرثارا يرفض الصمت دون استيعاب كأنه خلق لذلك وفقط: لماذا نحن يا أمي؟! أنحن مجرمون؟! ما الذي فعلناه يا أمي حتى يقتلوننا؟! ماذا فعل لهم محمد وعمر وليلى وخديجة والعم والعمة؟ أقتلوا أبناءهم؟!

ردت: لا يا بني لم يفعلوا لهم شيئا، فقط أرادوا الحياة..

سألها والخوف يملأ قلبه: متى دورنا يا أمي؟ هل نحن أيضا سنموت؟ هل سيقتلوننا؟ هل سيحرقون كوخنا الصغير ونحن فيه؟ أليس حري بنا أن نهرب؟ لم تفعلي لهم شيئا سيئا صحيح أمي؟ أنا لم أفعل لهم شيئا، أقسم لك!

جذبته وهي تبكي وتتحسر على ما وقع وندما على أنها أخذته، لو كانت تعلم أنهم قتلوا جميعا ما كانت خرجت، فما لخروجها من معنى، كانت تود المساعدة وكانت متأخرة في ذلك كثيرا، وهل عليها الآن أن تأوي إليها هذا الصغير وتضمد جراحه الباطنة، روحه الخائفة، كيف عليها إيصال الفكرة له، وهل سيتقبلها؟ هل سيرضى بكونه ضحية ضعف ألم بأجداده يوما؟ أم أن من بالقرية عاجزون جميعا عن إنقاذه، أم أنه عليه تقبل الموت متى تقدمت نحوه دون سؤال، بل دون تبرير لم قتل!

هذا الفتى الذي بدأت أسئلته تكثر يوما بعد يوم، هل لها الجرأة الكافية لتجيب عن كل أسئلته؟ وما الذي ستقوله له فهي لا تعرف شيئا عما يحدث سوى أن من يقتلونهم لا يحبونهم مذ خلقوا لأنهم مسلمون!!

كل ما استطاعت قوله بينما هي تفكر كان: تعال بني ستعرف كل شيء عندما تكبر، أنت صغير لا تزعج نفسك بهكذا أمور.

ردباستغراب، بحزن: نعم أنا صغير يا أمي، لكن هل سأكبر حقا؟ أمتأكدة من أنهم سيتركونني أكبر؟ كيف أكبر يا أمي وهم يخيفونني ويتوعدونني؟ لقد قتل محمد وعمر وليلى وخديجة قبل أن يكبروا، أعلموا ما يحدث يا أمي أم ماتوا دون أن يعرفوا شيئا؟

قال برهان كانوا يصرخون ويتألمون، بينما النار تلتهم كوخهم وأجسادهم، ويطلبون النجدة! لا أظنهم رضوا بالموت يا أمي، إنهم يريدون أن يلعبوا أكثر أن يلتقوا بي أكثر، وما ذنب عمر يا أمي لقد كان رضيعا لا يتحدث بعد ولا يؤذي أحد، كان فقط يبتسم ويبكي عندما يجوع..

صرخت في وجهه دون أن تعي فهي أيضا تحتاج لمن يحضنها، لمن يضمد جرحها، لمن يحميها ويؤنسها، من يجيب على أسئلتها؟ من قتل زوجي؟ وبأي ذنب قتله؟ من أعطى الحق لقاتليه أن يقتلوه؟ تبا، لا تسل يا صغيري؟ لا تسل عن جرحي

لمَ لم يندمل؟ عن دموعي لمَ تنسكب؟ عن أملي كيف يحترق؟ عن خوفي لمَ يكبر؟

خيرتك بني ولم تسمع كلامي، كنت أعلم أن لا معنى لخروجك سوى البكاء والنكد، لكنك لم تستمع لكلامي ونصيحتي، خبأتك هناك مذ كنت صغيرا وها أنت تكبر لمَ لمْ تبقَ هناك؟ أنت من يريد أن يموت، لو تبقى هناك لن يجدك أحد..

ضمته إليها وهي تبكي ثم مسحت على رأسه يجب أن تختبئ يا بني يجب أن تكبر لتحميني، مالي في الدنيا غيرك، سأبقى وحيدة إن تركتني أرثي همومي دونك، ربما سأموت قهرا لا على أيديهم!

مسح دمعتها قائلا: لن أتركك يا أمي، سأحميك لكن...

لكن يجب أن أعرف ما الذي يحدث، يجب أن أجد من قتل أصدقائي، لم يعد لي الكثير من الأصدقاء كي ألعب معهم، يجب أن أعاقب هذا القاتل الذي يقتل الصغار، لم يقتل كل الذين أعرفهم حرقا وفي يوم واحد ثم يتوعدني؟ كان عليه أن يحضر لنا لعبا وهدايا جميلة، لا أن يحرق العيدان التي نستخدمها للعب، أن يغني لنا أغنية عن الحياة ومعانيها، لا أن يصم آذاننا بأصوات الرصاص وصراخ الأحبة، أن يزرع لنا زهورا في أراضينا كي نستنشق عطرها، لا أن يكثف دخان

الحرائق الذي يخنقنا، كان عليه أن يبني لنا مدرسة نتعلم فيها، لا أن يهدم بيوتنا ويتركنا للضياع والعراء والجهل..

نعم يا بني، كان عليه فعل ذلك لكنه لم يفعل، لذلك سنفعل ذلك معا يوما ما، هيا بنا إلى البيت، يجب أن أستريح، لقد كان يوما شاقا ومتعبا.

بعدما دخلت بيتها جلست تستريح لكنها لم تهدأ بعد، لقد أزعجها المنظر وأخافها، إنهم يقتربون أكثر، ويدمرون أكثر دون خوف، كانوا يقتربون فقط من الضواحي لكنهم هذه الأيام يقصدون أواسط القرية، ماذا عليها أن تفعل؟ وكيف ستحمي صغيرها؟ ذكراها الوحيدة وما تبقى من كل عائلتها.

جلس ابنها إلى جانبها وضع يده الصغيرة على يدها وسألها ببراءة الطفولة الوجلة: فيمَ تفكرين يا أمي؟

- لا شيء يا بني لا شيء..

تركها تفكر ثم وضع يده على خده كما تضع وبدأ يفكر، كأنه كبر حقا، كأن هموم الدنيا وقعت على رأسه فجأة، كأنه سيجد حلا أو تفسيرا لما يحدث، وصرخ دون إنذار فأفجعها، أمي أين قيس، شيماء، برهان، بلال، دعاء، أمين، نزار، زكي، خلود، بهاء وأنور؟

بحيرة: بني من هؤلاء؟

أنسيت يا أمي؟ كنت تلفينني تحت ردائك وتأخذينني كي ألعب معهم العام الماضي، إنهم أصدقائي لا تنكري ذلك يا أمي، لكنني لا أراهم بالشارع منذ مدة، أرحلوا؟

- أخذوهم يا بني..

- إلى أين يا أمي؟

- لا أدري، يختطف الأطفال كل يوم، كل أسبوع، كل شهر، كل سنة، ليباعوا كعبيد في بلدان أخرى، وأحيانا يقتلون، يحرقون، يعذبون، يغتصبون!!

قاطعها: أنت تخيفينني يا أمي، لمَ يفعلون بهم كل ذلك؟ أكل الأطفال يفعل بهم هكذا؟

يكفي أسئلة بني، يكفي تجريح بني، لا تذكرني بما مضى، لم أكن أريد قول ذلك لولا طول لسانك المفاجئ، ليتك ما كبرت يا بني، ليتك بقيت رضيعا، ليتك كبرت دفعة واحدة وصرت رجلا، ما الذي سأفعله معك أو بك وأنت بعشر سنوات لا يمكنني لا حمايتك ولا حتى حماية نفسي!

تركها تندب حالها ومآلها، وأخذ يجر رجليه قاصدا الشارع، كأنه يتوعد قائلا:

- لا عليك لا تجيبي على أسئلتي سأسأل أصدقائي إنهم يعرفون كل شيء، إلا أنا حبيس هذا الكوخ، إن لم يحرقوه ونحن فيه سيسقط يوما على رؤوسنا، لمَ لا

نبنيه أكبر من هذا؟ لمَ بنيناه من خشب وقليل من الطين؟لو كان رملا وحجارة ما استطاعوا حرقه، لمَ تخشين علي وأنا هكذا؟

نادته تعال بني أرجوك لا تذهب!

لا رجاء ولا بكاء يريد الخروج: لن أبقى أريد أن أعرف كل شيء، لا أريد أن أعيش وأنا خائف يا أمي، إنني ميت في الحالتين يا أمي، فوحدتي وخوفي أو موتي على أيديهم واحد!

وهي تبكي بشهقة، تلحق به تريد إمساكه: تعال بني، تعال سأحكي لك كل شيء، سأجيب على كل أسئلتك، لا تغيب عن عيني أرجوك، أنت ما يملأ فراغي، أنت أنسي، أنت ما بقي لي، أنت حلمي وكل ما أملك، تعلم أنك صغير وأنا أنتظر فقط أن تكبر أكثر، أنا أضعف كل يوم من تفكيري وخوفي وتعبي عليك، ربما لن أستطيع الفرار بعد سنه أو سنتين ستكون أنت من يحملني، أخشى أن أموت على أيديهم، أريد موتا هادئا بني، حتى لو كان غدا، لا أريد أن أموت على أيديهم.

وقف غير بعيد ثم سألها مجددا: لمَ أنت وحيدة يا أمي؟ لمَ للعم ثلاثة أولاد؟، وللجيران عدةأولاد؟ ولهم آباء وأعمام وأخوال، وأحفاد إلا أنا وحيد؟ أقتلوا إخوتي؟ أقتلوا أبي، عمي وخالي؟ جدي وجدتي؟ أم أخذوهم؟

مسكت يديه وأجلسته قربته منها أكثر لا يهمها إن كان ما ستحكي سيؤثر عليه، إنها تريد فقط أن تثني عزمه على الخروج، لم يعد الوقت مناسبا أبدا، وبدأت تحكي يجب أن تقول كل شيء، ربما سيأخذه النوم، ربما سيحن قلبه ويجلس إليها، ربما سيصبح مطيعا أكثر، اسمعني بني سأحكي لك:

"كنت أعيش مع أبوك في الشارع المقابل للشارع الذي أمام كوخنا هذا، كنا نعيش في بيت من القش سقفه من جريد وأعمدته من أغصان الأشجار، حيطانه من قش وما جمعت أيدينا من خردوات، كان أبوك يبيع الحطب ويحمل الأثقال ويجلب معي المياه لنا وللجيران.

كنت أحرث الحقول مع النساء وأعتني بحديقة صغيرة أمام كوخنا نبيع بعضا مما نجني ونحتفظ ببعضه، ونجمع المال كي نبني هذا البيت الذي نحن فيه اليوم، إنه أحسن من سابقه بكثير.

بعدما جمعنا ما يكفي من المال، اشترينا ما يلزمنا وبدأنا في بناء هذا الكوخ، كاد يكتمل كنا نستعد للانتقال، جمعنا كل شيء، في انتظار الرحيل صباحا..

كنا نبيت والخوف يملأ قلوبنا في الكوخ السابق، نتداول ساعات النوم والحراسة، كان سهل المنال، قريبا للغابات الكثيفة التي يقصدونها ليلا، كانوا يغتالون كل

من وجدوه بين أيديهم دون رحمة أو شفقة، كبيرا كان أو صغيرا، ذكرا أو أنثى، شيخا أو عجوزا..

عشنا هكذا مذ كبرنا، لا نرتاح بالنوم ولا نتذوق طعمه كغيرنا، أما الأمان فلا نعرف معناه سوى أنه أمل ننتظره، والرفاهية هي مصطلح من الماورائيات لا يمكن لأحد تصورها حتى.

وبينما نحن نستعد للرحيل، أراد أبوك أن يأخذ ما كان في الحديقة الصغيرة من محصول كي نقتات به لأيام كما أننا لن نعود إليها فهي مخيفة والعودة لذاك المكان مكلفة بالأرواح.

كنا نريد أن ننجب أطفالا عدة، كي تكبر القرية، كي نتغلب بهم على أعدائنا، كي نتعاون على زحم الحياة وصعابها، عشرة أو عشرون، نريد أن ننجب جيلا كاملا، أن نعلمهم أننا قادرون على الحياة مهما قتلتم وذبحتم، كنا ننتظر فقط إكمال الكوخ الجميل، ولما اكتمل كان الحلم على وشك أن يتحقق، لولا حصول الذي حصل!

لمَّا خرج أبوك، بقيت أنتظره بالداخل، لما تعبت اتكأت على فرشي زمنا، طال غيابه انتظرت وانتظرت، تساءلت عن سبب تأخره، لكنني طمأنت نفسي قائلة: ربما لم يستطع حمل ما أنتجت الأرض؟ ربما وربما...

جلست أنتظر وأنتظر لكنه لم يعد، لم أستطع أن أتحمل أكثر، أخذت مصباحا وذهبت للغابة أين كانت حديقتنا الصغيرة لم أكن أعلم أن عيني غفت وأنا بانتظاره، وأن الوقت الذي خرجت فيه للبحث عنه كان أقرب للفجر منه لليل، كنت خائفة جدا، أمشي وأرتعش، أنتفض كلما التصق شيء بلحافي، شجر أو عشب، لا شيء لدي كي أحمي به نفسي إن أحاط بي مكروه، وحيدة في وسط الغابات..

وصلت محلي نظرت هنا وهناك بحثت في كل مكان، لم أجد أحدا، حاولت أن أنادي على أبيك لكنني خفت، لم يكن هناك صوت ولا نفس، إلا أصوات الحيوانات المخيفة، لا نفس ولا حركة ولا دليل لأبيك، قطِفت كل الثمار وما زرعنا، لكن لا وجود لها، كأن أحد قطفها وأخذها، لم أشك في غير أبيك، هذا ما كنت أوده أن يحدث، لا أريد سماع خبرا آخر، يجب أن يحدث ما أتمنى وفقط، جلست تحت شجرة كأنني أستلقي وأحتمي بها وأطفأت المصباح خوفا أن يراني أحد، فإذا الفجر يبزغ، أحسست بالخوف والخطر وهول الأمر، يا ربي!لطفك يا رحمان، إنه الفجر ولا وجود لأبيك، واكتشفت أنني نمت كثيرا وأنا أنتظر يا ويحتاه! بكيت وبكيت، بكيت وأنا أحبس صوتي وأنفاسي خوفا، لم نهنأ حتى بالبكاء بني، أتكئ على الشجرة أنتظر طلوع النهار، وما إن طلع أخذت عصا

كانت على الأرض لأتكئ عليها ومشيت أجوب بين الأشجار كالعجوز التي تقوس ظهرها وخلت ركبتاها فلا هما يحملانها ولا العصا، لا قدرة لي على أخذ خطوة، خوفا مما سأجد أو ما سأعلمه عن أبيك، وطبعا، لم أمشِ كثيرا حتى رأيت بركة من الدماء ومجموعة من العصي وأبوك بينها يسبح، أغمضت عيني كي لا أرى، لكنني لم أستطع، ففتحتهما لأنني تذكرت أنها الحقيقة، وأن لا مجال للتحاذق، وأن الذي حدث لم يكن غير متوقع، كان منظره يدمي القلب، يخشاه القوي والضعيف، كيف قتلوه؟ كيف ضربوه؟ كيف كسروا أضلاعه؟، يا ربي رحماك، لا تكاد ترى عضوا من أعضائه سالما ولا جزءا من جسده، كلما ترفع طرفا من أطرافه يعود للأرض طوعا، كأن عظامه بذاتها قطعت، بل كسرت وهشمت، عرفته فقط من لباسه وهيأته، ومن هول ما رأيت صرخت بأعلى صوتي والرعب يملأ قلبي، صوت في نفسي يقول:

ويحك لا تصرخي ربما لا يزالون هنا، سيقتلونك حتما، وصوتا آخر ينادي:

ابكي واصرخي ارْثي زوجا وابنا وحلما وبلدا غيرا آمن، ابكي مستقبلا مجهولا وموتا قادما..

وصوتا آخر يقول:

أين هم؟ سأقتلهم جميعا ولو كانوا مائة، لكنها لم تكن أصوات حقيقية فالصوت الحقيقي الذي كان يسمع هو الصراخ والنحيب، آه زوجي آه، ويلي يا ويلي، آه وحدتي آه...

اجتمع الناس حولي يحسبون أنني أتعذب بالضرب أو الذبح فوجدوني على جثة أبيك أجثوا أضمه وأناديه لعله يستفيق، لكن كل محاولاتي كانت فاشلة فقد فارق الحياة منذ مدة، أخذوني لكوخي والتفوا حولي يؤنسونني لا تحزني ليس الأول وليس الأخير، هذا مصيرنا وهذا حالنا، لم أكن أستمع لهم ولا لما يقولون كنت فقط أنظر لجثة زوجي المكفنة،كان محظوظا أن كفن ودفن، عدة منا لا يحصلون على ذلك، لقد انتظروني حتى أعي الذي يحدث ليدفنوه، ثم دفنوه يا بني ترجيتهم ألا يفعلوا كان بودي رؤيته أكثر أن أضمه إلي أكثر أن أعاتبه أكثر لكنهم دفنوه!

خفت كثيرا لم أكمل يومي بذاك الكوخ كنت أخشى أن يلحقوني به، كنت أرغب بلحاقه لكن ليس على أيديهم، تمنيت الموت لكنها لم تأتِ، كأنني لم أتعذب كفاية كي تقبل طلبي، وربما هناك طابور طويل من أمنيات الموت الناعم، وهي تعدل في تحقيق الأماني وكانت أمنيتي في آخر الطابور، لا أدري؟

أخذت ما استطعت حمله أعانني على ذلك بعض الجيران ورحلت، رحلت إلى هنا حيث لا ذكريات ولا أنس، لا راحة ولا أكل، حيث الخوف والألم، بكيت أياما وأيام أرثي ما حولي وما جمعت ما كنا ننوي القيام به، لم أكن أعلم أنك تتربع في أحشائي، ظننت أني فقدت كل شيء، لكنه تبين لي بعد فترة أني حامل بك، فرحت كثيرا وحزنت، فرحت أن أباك ترك لي شيئا ثم فجأة بكيت وندبت حالي، لم أنت فرحة؟ أبابن دون أب يحميه، أبولد كي يقتله ويعذبه الآخرون؟ سيبكي ليلا سيسأل أكلا وشرابا، سيشتكي الحرمان والضعف، كيف ستخبئينه ومتى يكبر؟

لم أجد حلا، أردت الرحيل من هنا، لكن لم أكن أدري إلى أين؟ لا مال لدي ولا دليل، استسلمت لحزني وبقيت وحدي، لقد كان لي جارات عدة يأتين إلي مرة بعد مرة يؤنسنني، لكن وجودهن لم يكن يغنيني ولا يفرحني، فكل يوم أبكي إحداهن فقدت، أو أبكي معهن أحد أفراد أسرهن، أبناءهن، أزواجهن، أو أخواتهن..

أخبرت جاراتي أنني حامل كي يحمينني لقد كنت أخاف ليلا، فكن يسمحن لي بالمبيت عندهن أحيانا، ويطعمنني إن قل الغذاء، ويعملن مكاني إن توعكت أو تعبت، حتى ولدتك يا بني، فرحت كونك ولدا، وبكيت أن قد لا يكتمل فرحي

بك ويقتلوك يوما، لم أستطع أن أداعبك كباقي الصغار ولا أن أمكنك من اللعب، ولا قدرة لي على الاعتناء بك فالحال كما ترى قليل، كل وقتي أقضيه في العمل أخفيك بالمنزل خوفا عليك، وأعمل طول النهار لإطعامك، كنت أضعك بين هذه الألواح يا بني، لقد كبرت بينها ولا تزال مأواك لليوم!

لم أدرِ يوما ما الذي أفعله لما سمعت أنهم قتلوا ابن الجيران، وكنت أود الخروج للمواساة، خفت أن يلحق بي أحدهم ولا أقدر على حملك والفرار، أو أن يأخذوك من بين يدي عنوة، أو أن تسقط وتحثني نفسي على الهرب دونك، أو أن يصيبوك برصاصهم الذي لا نملكه، كل الأفكار السيئة كانت تدور في رأسي.

فكرت في حل ولم أجد غيره أفضل منه فقد نظرت فجأة للأرض فتذكرت كيف كان أبوك يقص الألواح مربعات ويضعها على الأرض، فأتيت بسكين وخشبة كبيرة وضربت بين الشقوق حتى نزعتها وحفرت الأرض حتى أصبحت كالقبر، وضعتك هناك لقد كنت نائما، رأيتك وأنت تنام في سلام كم حسدتك على تلك الطمأنينة وتمنيت لو كنت بسنك لا أعي الذي يحدث، أعدت الألواح لمكانها فأصبح كأن لا وجود لك، وضعتك وكلي أمل ألا تستفيق فتخشى الظلام، أن تبكي ولا تجدني، أن يحرقوا الكوخ وأنت فيه، أن يأتوا ويسمعوا صوتك ويقتلوك، لكنني تركتك وذهبت، ذهبت ودمعي على خدي!

عند عودتي كان أول شيء فكرت فيه أنت، كنت كالمتلهفة أبحث عنك، فتحت اللوحة فوجدتك تكاد تموت من البرد، أخذتك واحتضنتك دفأتك بين يدي، فأخذت تبتسم، لم أحزن على حالك يومها صدقني، قلت أجدك على هذا الحال أحسن من أن أجدك ميتا، ومذ ذلك اليوم ومكانك هنا، إلا أنني عدلت فيه فأنت تكبر يا بني، وخاصة بعد ذلك اليوم المخيف، عندما تركتك وأخذت تضرب بيديك ورجليك يمينا وشمالا فسقط عليك الرمل من الجوانب وكدت تختنق بعدما استنشقت منه، فقررت أن أضع لك ألواحا من الجوانب!

ولن أنسى ذلك اليوم، اليوم الذي نسيت فيه مكانك، كدت أنزع كل الألواح، كدت أهد الكوخ أرضا، لولا إنقاذك لنفسك بعدما بكيت ورفعت رجليك لأعلى ولم يكن المكان أكبر منك بكثير فرميت اللوحة بعيدا، ضحكت حينها وبكيت، خوفا عليك وفرحا بقوتك. كنت صغيرا لكنك قوي لدرجة نزع اللوح برجليك، من ذلك اليوم علمت اللوح بالفحم أن وضعت خطا عليه ولم أعد أخشى من حينها فهو المكان الذي يحميك، أخشى أن تكبر ولا يسعك، ما عملي حينها."

بكت وهي تحكي كثيرا، احتضنها ابنها وهو يسترق القوة من ضعفه قائلا: لا تبكي يا أمي، لا تبكي يا غاليتي، لا بكاء بعد اليوم، لا تخافي أنا هنا سأحميك، أنا

لا أحتاج للعب ولا للطفولة يا أمي فهي لا تحق لي يجب أن أكبر رغما عني، سأؤجلها ليوم آخر، يوم نكون في أمان يوم نتمكن منهم، يوم نستجمع قوتنا، يوم نزرع حدائقنا ونجنيها بأيدينا ونحن نعلم أنها لنا، عليك أن تثقي بي يا أمي..

ضحكت من مقولته الجميلة، من تظاهره بالقوة رغم ضعفه، من حماسه وثقته، نظرت إليه وهي تتمنى أن يتحقق هذا الحلم البريء، هذا الحلم الذي هو في الأصل حق لكل طفل صغير، لا أمنية، كما يحدث مع ابنها، قائلة: أعلم أنك بطل يا بني كنت بطلا منذ الصغر، كنت تكبر لم تتعبني يوما إلا بعدما بدأت تتحدث وتسأل، أعلم أنك قادر عليهم، لكن يجب أن تعلم أن لديهم أسلحة، وسكاكين، لا يخشون أحدا ولا حتى القانون فهو يحميهم!

تعجب من قولها قائلا: وما القانون يا أمي وكيف يحميهم؟

آه يا بني لو كان بوسعي تعليمك أكثر كنت فعلت لكنني لا أعرف لا القراءة ولا الكتابة، أحفظ فقط بعضا من الأمثال والحكم والآيات القرآنية التي لا أفهم شيئا من معانيها، لكنني أعرف بعضا من قصص الأنبياء والصحابة وبعضا من السيرة النبوية سأعلمك إياها كي تفهم ما الذي نعنيه بالإسلام، ستفهم بعدها لمَ هؤلاء الناس يقتلوننا جماعات وفرادى، ستعلم لمَ نموت بهذه الأعداد الهائلة، ستعلم لمَ يكرهوننا!

رد الفتى بسرعة: لمَ لا أذهب مع همام فهو يدرس في كوخ مجاور، لقد سمعت أخاه يتحدث عن ذلك، عندما ذهبنا لزيارتهم أتذكرين؟

نعم بني أذكر لكنه يدرس لأنه كبير، يمكنه حماية نفسه فهو قوي ولا يخشى أحد، إنه يريد أن يكون متعلما ومثقفا، أن يصبح معلما، أن ينشر الإسلام ويحمي القرية.

حتى أنا أريد أن أدرس يا أمي، فأنا أريد أن أصبح كذلك!

ردت بنبرة حادة وتعلم أنها لن تجدي لكنها تحاول جاهدة يجب حماية وحيدها: قلت لك لا تزال صغيرا يجب أن تكبر أولا!!

رد بذكاء كأنه يدرس في مدرسة خاصة به وحده: أمي أنا اليوم في العاشرة، متى سأدرس؟ أعندما أصبح في الثامنة عشر؟ أم بعد أن أموت؟!

أمي سأكون أغبى وأطول تلميذ لدى المعلم، لن أتمكن من التعلم حينها، وربما لن أعيش لذاك السن أمي دعيني أرجوك أدرس ولو لأيام، وإن شئت لساعات، دعيني أحظى بجلسة مع أقراني، دعيني أحظى برفع يدي أجيب على سؤال صعب، دعيني أحمل لوحا وأكتب حرفا، دعيني أنطق حقا، لغة فصيحة وكلمة صحيحة، لعلي إن ما كبرت في جسدي كبر عقلي، لعلي إن ما مت وحيدا مت مع أصدقائي، لعلي أصبح رجلا نبيلا في هذه القرية التي ما أنجبت غير الضعفاء!!

وضعت يدها على فمه عافاك الله بني قاتلهم الله وقتلهم قبل أن يصلوا إليك، بني لم أكن لأحرمك من الخروج لولا علمي بما يحدث، إنهم يهاجمون المدارس والمساجد، في كل مكان يجتمع فيه المتعلمون، لا يريدون أن ينتشر العلم والإسلام ولا أن يتكاثر المسلمون، يدرس المعلمون بسرية، ويتعرضون للتعذيب والتنكيل كلما قبضوا على أحدهم لم يمنع الطلاب من هجماتهم، ولا المساجد فقد حرقت عن آخرها، بما تحوي من طلبة ومصلين، أتظنني سأبعثك للموت بيدي؟، لا لن أفعل ما حييت، إنهم يهاجموننا حتى في بيوتنا بني وفي شوارعنا، يقتلون أطفالنا وهم بين أيدينا، كيف علي أن أتحمل ذلك؟

أنا لا أخشاهم يا أمي ولا أخشى الموت ذاته، سأموت يا أمي، إذا ما مت اليوم فسأموت غدا، إذا ما مت متعلما فسأموت جاهلا، إذا ما مت وأنا أتعلم سأموت وأنا أحمي نفسي في كوخنا الصغير، يجب أن أعرف الإسلام الذي تتحدثين عنه يجب أن أعرف لمَ يكرهوننا، لمَ يقتلوننا لمَ شردونا، لن أبقى هنا أنتظر الموت، سأفنى يا أمي وسنفنى دون أن يكون لنا من يزرع أرضنا ولا من يحمي صغارنا، ولا من يضمن مستقبلنا، سأذهب وإن رفضت يا أمي، سأذهب عنوة، ستغفرين أعلم ذلك!

صرخت في وجهه، لا تفعل يا بني، سأبذل جهدي كي أجد لك معلما، فالدراسة ليست بالمجان بني، فالمعلمون يقتاتون من عوائد التعليم، يجب أن تدفع، والمدارس المجانية خطرة لأنها تقع خارج القرية، في مخابئ يهاجمها قطاع الطرق على غفلة، يقتلون من فيها ولا يسمع بموتهم أحد، غير الضباع وسباع الأرض التي تأكل جثثهم، يتعرضون لمخاطر الطريق وتتعرض لهم حيوانات الغابات، لا تذهب بني..

أتعديني يا أمي أنك ستأخذينني للمدرسة؟ أن تجدي لي معلما يعلمني؟ إن وعدتني فسأعدك بالحزم يا أمي سأدرس بجهد، دون كلل، سأتعلم بسرعة..

ردت بصوت خافت أعدك بني!

أرجو أن لا يكون تأجيلا لاغتنام فرصة كي تتدبري خطة لإفشال غرضي..

أنا لا أكرهك يا بني، أحبك كثيرا بني، أريد أن أحتفظ بك، أن أراك وأنت تكبر، سعيدا ومتعلما، أخشى عليك الألم والأذى.

لم يكن قانعا بما يسمع لكنه سكت عن محاورتها..

لما رأت رضاه عن كلامها توسمت خيرا، ثم نهضت بعدما تنهدت الألم العميق في داخلها نهضت كي تعد له طعاما يسد جوعه وهي تفكر فيما ستفعله، أي شيء ستستغني عنه كي توفر منه لدراسة ابنها، وهل نقصانه سيعود بالخير عليهم،

تفكر كيف ستحمي هذا الولد الصغير، من غدر الطغيان، ثم عادت إليه لتسأله عما يريد أكله كأنها تملك كل شيء، فقط تريد أن تسعده، أن تبين له أنه مهم في حياتها، نادته أحمد، بني...

أريد أن أطبخ الأرز هل يرضيك هذا؟ انتظرت إجابته لكنه لم يجب!

نادته مرة أخرى: أحمد! أحمد بني...

صرخت والدمع لا يبخل عليها أبدا، أحمد بني؟

يا ويلتاه ويا ويحتاه،خرج الفتى، خرج الضنى، يا ليتها تصعد الروح بعده...

بحثت عنه في كل مكان لا يلزمها وقت طويل لفعل ذلك فالكوخ كله مترين، أين يمكنه أن يكون غير خارجه؟

يجب أن تبحث عنه والسؤال الذي يطرح نفسه:

من أين ستبدأ؟ وأين ستبحث؟ أفي الغابة أم عند الجيران؟ وهل يخرج أحد في هذا الوقت؟ ماذا لو مسكوه؟ ماذا لو قتلوه؟، يا لهفها على نفسها إن وجدته هامدا كوالده؟ ترتعش خوفا، لكنها تخرج، كل حياتها لأجله وإن عاشت بعده ستكون الحياة قهرا لا يسرا، ستكون تنفسا لا حركة، استسلاما لا رغبة، بل كقولهم "مجبر أخاك لا بطل"!

خرجت دون أن تعي الذي يحدث، تشتاق لرؤيته وكأنها لم تره منذ زمن، أن تراه واقفا على رجليه يبتسم، فقط أن ينادي أمي أنا هنا!

تنادي أحمد بني،أحمد بني،أجبني بني، أسمعني صوتا غاب عني لدقيقة، قل أمي بني...

قلها كما قلتها أول مرة، قلها وإن شئت لآخر مرة! أنا أمك، من ولدتك، لا أريد أن أرى دماك تنهمر!

وتتذكر المنظر الأليم لزوجها، صورته وهو بين العصي والدماء حوله تسقي الأرض وهي تقول رويت مطرا لا أريد دما، وتتخيل ابنها الصغير مكانه، كعلقة لم تصبح مضغة بعد، ويزداد تراقص صدى صوتها في الشارع كأنه مزمار على طاولة يهزها الزلزال، صوت حني مليء بالألم والخوف، أين أنت أجبني يا بني، لا ترحل أرجوك، يا أنسي يا أملي، يا وحيدي يا ميراثي، كنزي الثمين...

خرجت بعض النسوة من أعشاشهن ظنن أول الأمر أنه قد قُتل وهي تحمله لكنهم رأوها خالية اليدين تنوح وتبكي وتبحث ترفع كل شيء على الأرض وتتجه نحو الغابة..

حاولن جهدهن تهدئتها لمعرفة الذي يحدث، ليساعدنها، فقصت عليهم قصتها بعجل وهي تصرخ أعيدوا لي ابني أرجوكم!

لن يبتعد كثيرا، سيعود، أين سيذهب؟ لا يعرف المكان سيخاف حتما، فقط انتظري قليلا.

لا لن أنتظر، لا يخاف ابني شيئا، لقد ذهب يبحث عنهم، إنه ضعيف ولا يعرف الذي يحدث!

وبينما هي تنعيه قبل إعلان رسمي عن تصنيفه كمفقود دائم أو وفاته خرج أحد الأطفال من بيته قائلا: أتبحثين عن أحمد؟

كأن المطر هطل فجأة بعد صلاة استسقاء، أجل أبحث عنه هل حصل له مكروه؟ هل هو بخير؟ هل رأيته؟ أين اتجه؟

- اصمتي، دعيه يجيب، لمَ كل هاته الأسئلة؟!

رد: نعم أظنه سيكون بخير، ذهب مع أخي عثمان إلى منزل المعلم قال يريد بدء حصص التعليم وأنه سيرافقه من اليوم فصاعدا، قبل أخي وأخذه إلى هناك، لا تخافي أخي قوي سيحميه.

ترجته والخوف يملأ قلبها كيف سيحميه الفتى وكلاهما في خطر: خذني إلى بيت المعلم أرجوك، أيمكنك ذلك؟ يجب أن ألحق بهما..

تأسف الصغير منها بعينيه قبل يديه ولسانه قائلا: لا يمكنني ذلك، أمي وحيدة وهي مريضة جدا.

مسكته من كتفيه تخضه كما يفعل بالحليب كي يستخرج منه الزبد، بل كي يصبح لبنا كأنها لا تدري أن الذي بين يديها طفل صغير، بعمر ابنها أو أقل، لكنها معذورة فوحيدها بين فكي مصاصي دماء حقيقيين يجب أن تلحق به؛ صف لي الطريق أرجوك إلى هناك، يجب أن أذهب!

- لا يمكن وصفه فهو بعيد، لذلك عليه أن يجد من يعرفه، مد الطفل بنظره حول الجمع يبحث عمن يعرف المكان بين الموجودين، فابتعد الجميع خوفا أن يقع الاختيار على أحدهم، لا يجرؤ أحد على الذهاب بعيدا في مثل هذا الوقت، لكنه لم يشر للكبار ونطق لصديقه قائلا:

- عمر أيمكنك أخذها إلى بيت المعلم حافظ الدين؟

فرد عمر بسرعة ودون تفكير: بلى أعرفه جيدا، سآخذها إليه...

يا إلهي! يحتاج الكبار إلى جرأة الصغار، مبادأتهم، إلى طهارة عقولهم، إلى فطرتهم السليمة، إلى حبهم للمساعدة، إلى رغبتهم في كسب ثقة الكبار..

أخذ الصغير المرأة من يدها متمسكا بها كأنها ستحميه، كأنها قادرة على ذلك ومشى وهي تتبعه إلى حيث يمضي.

مشوا قليلا وبينما هما على الطريق ظهر أحمد وصديقه وهما عائدين من بيت المعلم فتقدمت نحوه مسرعة تبكي، ضمته، ضربته، كفكفته، سألته بلهفة:

لماذا ذهبت إلى هناك؟ لمَ فعلت هذا بي؟ ألم أقل انتظر الصباح؟

رد وهو صامد كأن الذي تفعله أمه اعتيادي واثق مما يفعل فهو الأكبر اليوم برغبته، هو الأكبر بتحديه وتصديه، هو الأكبر بجرأته، يعلم أن الذي يقوم به صحيح وأن خوف أمه مرض قد يكون قاتلا مع مرور الزمن، لكنه وللأسف لا يوجد طبيب في القرية لعلاجه، لذا عليه أن يتحمل حينا، أن يتعب قليلا، هكذا تفكيره تولد القوة من رحم الضعف، يولد الفشل الرغبة الكافية لتحقيق النجاح، أن التصالح مع الذات وتلبية رغباتها السلبية يؤدي للموت لا محالة، إلى الفناء والجهل، لذلك سيكون سيدا ولو لفترة:

أمي ذهبت للمعلم، يجب أن أبدأ الدراسة من الغد، لقد قبل يا أمي تعليمي، سأدفع له كلما جمعت، سأعمل معك يا أمي من اليوم فصاعدا، ستكون الدراسة صباحا فقط، أما المساء فهو للعمل، سأجمع كل تكاليف الدراسة، وعندما أتعلم القراءة سأشتري كتبا وأقرأها يا أمي، رأيت الكثير منها لدى المعلم كم كانت جميلة وهي مصفوفة كانت على الأرض ورثة في كوخه لكنها كانت صامدة أكثر منا لا تتزعزع عن مكانها يا أمي مليئة بالكتابة لكنني لم أفهم شيئا مما كتب ولا تمكنت من معرفة ما هو مكتوب، ولا حتى تمكنت من معرفة كيفية فتحها ولا الجهة، لكن المعلم وعدني أن أتعلم ذلك، لقد قال أنني كفء يا أمي فرح

كثيرا بتعليمي، قال الحال الذي آلت إليه الكتب كانت بسبب فقدها من يقرأها، بسبب عزوف الناس عن التعلم، بسبب الخوف الدائم من الموت كأن الموت يقصد فقط المدارس!

مسكته من يده بقوة ومسكت عمر باليد الثانية وبدأت تمشي بهرولة ويلحق بهم عثمان يجري، لم يجد الصغار بدا من فصل أيديهم عن يدها فتبعوها رغما عنهم يتعثرون بأغصان الأشجار والحشائش على الأرض وبعض خردوات الناس الموضوعة على الطريق، حتى وصلوا، أدخلت عمر وعثمان لمنزليهما وأخذت ابنها معها.

دخلت وهي في حالة من القلق ماذا ستفعل لهذا الفتى؟ هل ستدفعه للدراسة وتخاطر بحياته بكل سهولة؟ كيف عليها أن تقنعه بالبقاء بالبيت؟ حاولت تأجيل أسئلتها لكنها لم تستطع فبادرته قبل أن يتحدث: لماذا ذهبت إلى هناك بني؟ ألم تعلم بعد خطر المكان؟

لم يجب على أسئلتها بل سألها قائلا: أريد أن أعرف لماذا يقتلوننا؟ أجيبي يا أمي؟

حاولت كظم غيظها ومسايرته عله يفهم: لأننا مسلمون بني..

فسألها مرة أخرى: وما الذي فعله المسلمون لهم؟

ردت: أجبتك بني لا يحبوننا، يريدوننا أن نفنى من هذه الحياة، ألا يروننا ثانية، أن يخرجونا من هذا الوطن!

فسألها: لماذا نحن مسلمون يا أمي!؟

وهل المسلمون سيئون؟ هل هم مجرمون؟ لماذا لم نكن الطرف الأقوى يا أمي؟ هل لا يستحق المسلمون حياة طيبة، آمنة من الخوف؟ هل لا يحق لصغارهم أن يكبروا أو أن يلعبوا؟ أن يتجولوا بقريتهم ويتعلموا؟ أن يكون لهم إخوة، أعمام وأخوال؟ هل الإسلام عرق يا أمي؟ هل حقا سيتمكنون من قتلنا جميعا؟ لمَ بقينا في هذه القرية يا أمي؟ ما هي ديانة هؤلاء القوم الذين يقتلوننا؟ وهل هناك دين أفضل من ديننا؟ هل كل من في هذه القرية مسلم يا أمي؟ ألا يوجد مسلمون بينهم؟ لماذا لا نكون معهم؟ لماذا هم أقوى منا؟ كيف ضعفنا يا أمي؟ أجيبي على أسئلتي أرجوك؟ أريدأن أعرف؟ أريحي هذا القلب يا أمي؟ أقنعيني أن خوفك هو ما يجب أن يكون، لا أريد أن أخاف يا أمي، لا أريد أن أموت هكذا، دون ذنب اقترفته، أريد أن أصبح قويا، ما الذي يجب علي فعله أرجوك؟؟

وقفت، مشت ثم جلست ووقفت مرة أخرى، لم تجد ما تفعله وما الذي ستفعله أصلا، تريد أن تصرخ بأعلى صوتها، تملكها العجز كل حياتها وقاومته، لكن هذه المرة أتاها في أقصى صوره، كاد يشل تفكيرها، كان أصعب، كل أسئلة الفتى

جهنمية، يجب أن تجيب على كل أسئلته وإلا سيفعل أمرا آخر ربما سيهرب هذه المرة ويواجههم شخصيا، كانت تخشى ذلك!

أمرته بالجلوس فجلس، نيمته على حجرها كالولد الرضيع قبلته وضعت يدها على رأسه وبدأت تمررها على شعراته الرطبة التي غطت جزءا من عينيه قائلة: بني، قرة عيني، حبيبي، يا صغيري أصغي إلي، لا أعرف كثيرا عما يحدث، كل ما أعرفه أنني رأيتهم مذ كنت صغيرة وهم يقتلون أمي، أبي وكل إخوتي في يوم واحد ذبحوهم أمام عيني، كنت صغيرة جدا، كنت أجلس بعيدا ألعب مع أخي وعمي إلى جانبنا يكسر بعض الحطب لنستخدمه في الطبخ، فسمعنا صراخ أمي أتيت بسرعة لم أكن أعي الذي يحدث مثلك تماما.

رأيت الناس وهي تهرب بعيدا، تنتشر في كل مكان، تاركة كل ما تملك، كأنها تنجوا فقط بحياتها، كبارا وصغارا، نساء ورجالا، وكأنني لم أنتبه لهم، لقد كان صراخ أمي كل ما يشغل فكري، فقد أفزعني، ناداني عمي عدة مرات، لكنني تركته ينادي وذهبت تبعت صوت أمي الحزين، وحينما وصلت منزلنا، كان بابه أبعد من أن أصله، لحت بنظري من شق بين الحيطان التي كانت من القصدير وأنا خائفة أرتعش فوجدت عدة رجال بزي واحد علمت بعد من عمي أنهم عساكر، رأيتهم يقلبون بيتنا ويأخذون ما فيه وأبي يقف يرفع يديه لأعلى مسندا وجهه

للحائط وهو خائف رأيت أمي وهي تبكي تضم إليها إخوتي وهم يبكون خوفا من أسلحتهم، رأتني بعدما رفعت رأسها تترجى أحدهم أن لا يقتل إخوتي، فأشارت إلي اهربي بيدها التي كانت تحتضن بها إخوتي، كانت يدها ترتعش كانت خائفة جدا، لكنني لم أفعل بقيت أنظر والخوف يملأ قلبي، أردت أن أدخل لكن إشارات أمي أرهبتني فبقيت أنظر وعيني لا تصدق الذي ترى!!

أخذوا ما كل ما يصلح أكلنا وما جمعنا لأيام ثم ضربوا أمي بقوة أخذوا إخوتي من بين أيديها واحدا واحدا، ذبحوهم بالسكاكين وهم يبكون، يصرخون، يترجون أمام عيون أمي وأبي وهما يستغيثان أرجوكم لا تقتلوا صغارنا، لا تقتلوا أولادنا، لكنهم ذبحوهم بوحشية، رأيتهم وأرواحهم تصعد!!

لما قتلوا إخوتي استسلم والدي للموت كأنهم رحبوا بها بعد وفاة إخوتي، كأن لا حاجة لهم في الحياة دونهم، كأنهم نسوني وأخي، كنا في حاجة إليهم، ثم فجأة أطلقوا الرصاص على رأس أبي ثم أمي، يا لقلبها رأتهم وهم يموتون أمام عينيها، لا أنسى كم كانت قوية، انظر إلي لا أتحمل رؤية دمعة من عينك!

بعدما فعلوا فعلتهم، خرجوا وتركوا برك الدماء كأنها نهر ماء، فتحت على الأرض خطوطا كأنها نهر كبير يمد للفروع، ترتعد بعدما تجمعت بما دخل من هواء كأنها المد والجزر على الشاطئ، ذهبوا يتضاحكون، هكذا يفعلون بعد كل جريمة

يرتكبونها، لم يأتِ عمي وأخي إلا بعد أن ذهبوا، لقد هربا خوفا، دخلت هناك بصدمتي كان الصمت يسود كوخنا كأنهم لم يعودوا يستنجدوا كما كانوا من قبل، وددت لو عاد الزمن قليلا كنت دخلت ونمت بينهم، كنت جربت سكاكينهم علي أهمد مثلهم، وضعت يدي على أمي أوقظها ثم أتوجه لإخوتي وأبي أناديهم كل باسمه لكن لا أحد يجيب، أخبرت أمي أنني أطعتها ولم أدخل أنني جئت لنجدتها بعدما ذهبوا ناديت وصحت مرات ومرات لكنهم لم يتحدثوا معي لم يتحركوا، كلما رفعت عضوا من جسد أحدهم إلا مال إلى أسفل!

قلت لعمي بعدما دخل أن يوقظهم فبكى وقال إنهم نائمون، كذبته، لأن أمي كانت تستيقظ كلما ناديتها، وقد فعلت ذلك مرات ولم تستيقظ، فاعترف قائلا لقد قتلوا! لم يعد لهم قدرة على الحركة ولا على إجابتي، قال غدا ندفنهم وأن هذه سنة الحياة يجب أن تصعد أرواحهم لخالقهم، قال أنهم في الجنة لم أكن أعرف ما الجنة ولا ما النار لكنني أعرف أن كل من قتِل هنا سيدخل الجنة هكذا قيل لي، لقد كان يستغل جهلي، كان عليه أن يأتي لنجدتهم، لكنه فر هاربا!!

عشت مع أخي وعمي فترة من الزمن، صعبت الحياة وأصبحت مملة في غياب البقية، ازدادت المخاوف والأعمال بالبيت، وكثرت أعمال العنف، واعتدنا الصراخ والنحيب، والفقدان..

ذات صباح بينما كنت أقوم بغسل الثياب ونشرها وجدت عمي معلق على شجرة من رجليه كأنه جديٌّ ورأسه إلى أسفل لقد ذبح ولا أحد يعلم من فعل ذلك، صدمت مما رأيت، بحثت عن أخي خوفا أن يكون قد جرى له نفس الأمر لكنني لم أجده! دفن الجيران عمي وأخبروني أن أخي قد أخذ مع بعض الأطفال في سيارات العدو، حزنت كثيرا لكنني لم أبكِ رغم رغبتي في البكاء لحد الصراخ، كأنني اكتفيت، كأن كثرة الآلام تفضي إلى تجفيف الدموع والاكتفاء بمد البصر.

عشت أياما صعبة دونهم فقد أخذتني إحدى النساء لكوخها آوتني معها كأحد أبنائها، ومذ ذاك الحين وأنا أعمل معهم وأساعدهم كنت أشتغل كثيرا، لم يكن لدي الوقت حتى لأعلم الذي يحدث، لم تكن لي رغبة أصلا في حب معرفة ما يحدث، كلما فكرت تذكرت الصور الأليمة وشعرت بصداع في الرأس، وخوف شديد، لم أكن أجد من يهتم لأمري، فكل ما علينا فعله هو كسب العيش لا التكاسل والمرض.

لما كبرت تزوجت بأبيك وفي أيام زواجنا الأولى سمعنا بأنهم سيداهمون القرية ليلا فهربنا للغابات أفواجا أفواجا، نستتر لكنهم لم يداهموها فقط بل أحرقوها بمن فيها عندما عدنا إليها وجدناها كالصحراء القاحلة! استوى كل شيء مع

الأرض لم يظهر من الجثث غير العظام التي لم تصلها النيران وبعض الخردوات التي لا تصلح لشيء، قريتنا الصغيرة أصبحت رمادا، ليس هناك ما نأكل ولا ما نضع على جلودنا غير ما كان علينا، بكيت وبكيت لكن البكاء لم ينفع بشيء فقط أتعبني.كان الناس يفقدون من عائلاتهم كل يوم فردا أو فردين وربما يفقدون أحدا في الأسبوع أو الشهر، لكنني فقدتهم مرة واحدة فقدت أسرتي في يوم وأسرتي التي مكثت معها وأسرة أبيك في يوم واحد، فقدتهم بالدفعات، يا حسرتي!لكنني أحتسب أمري لله يا بني.

بعدما حل بالقرية قررنا الرحيل ولم نجد مكانا نأوي إليه غير كوخنا الذي كان محاذيا للغابات، ذلك الكوخ الذي حكيت لك عنه، والذي مات فيه أبوك، نعيد في كل مرة بناء ما هدموه، لكنهم يعيدون علينا الكرة، فنعود للصفر بني، وأحيانا للقلة، تركوا اليتيم وقتلوا الحامل والمرضع، تركوا المعاق ومقطوع اليدين أو الرجلين، المريض والمفجوع.آه يا بني ما الذي سأحكيه وما الذي سأتذكره، ما الذي سأبكيه وما الذي سأحزن لأجله، لم يعد للشعور بالحزن دور في حياتنا، لم نتقدم خطوة للأمام قط، بل نحن نعود للوراء كل يوم جزءا، هذا ما أعرف عنهم يا بني.

نظرت إليه تتوقع أن يكون قد نام ولم يسمع شيئا لكنه كان يفتح عينيه عن آخرهما متعجبا مما حكت، يستمع إليها ويدقق فيما تحكي، لا تزال علامات الحيرة بادية على وجهه، لم يكفه ما حكت ولم يقنعه!

فأردفت قائلة: أتريد أن تعرف لماذا نحن مسلمون بني؟ تقصد أنه لما انضممنا لفرقة ضعيفة؟ تريد أن تعرف لماذا نحن ضعفاء؟ لماذا نتعرض للموت يوميا؟
فرد بلهفة أكبر من سابقاتها: نعم أمي أن أعرف لمَ ينتابنا الخوف كلما أقدموا نحونا؟ لماذا نهرب ونتخفى؟ لمَ لا نواجههم رجلا لرجل؟ امرأة لامرأة، ولدا لولد؟ لمَ لا نملك أسلحة لندافع بها عن أنفسنا؟ لمَ يقتلنا بشر مثلنا؟ كيف تمكنوا من دخول قريتنا؟ لمَ ليس لدينا من يحرس قريتنا؟
يكفي! يكفي! سأجيبك بني، استمع إلي جيدا، لم نكن ضعفاء هكذا بني كان المسلمون قوة لا يستهان بها في العالم أجمع، من أهم صفاتنا القوة، تخشانا كل الأمم، تواترنا الإسلام وتعاليمه عن سيد المرسلين "محمد عليه الصلاة والسلام"، لكننا تفرقنا، نسينا بعضا من مبادئنا، اتبعنا أهواءنا، وتخلينا عن دستورنا، لهذا ضعفنا..

أهذا ما لديك يا أمي ظننتك ستحدثينني عنه أكثر مما حكيت عن حياتك، لكنك أوجزتها في بضع كلمات، لا تكفي يا أمي أريد أن أعلم أكثر، هل لك بذلك؟

استسلمت للمرة المائة في يوم واحد: آه بني عليك أن تقرأ، يجب أن تذهب للمدرسة، اليوم علمت قيمة العلم والدراسة بني، لو درست، لو تعلمت، لو سألت كنت وجدت ما أجيبك به اليوم..

لم أستعد يوما لهكذا يوم، كنت استطعت الحفاظ عليك وحمايتك، لكنني أعجز حتى عن الفخر بأنني مسلمة، أعجز أن أعرض عليك جزءا من بطولات الإسلام، بعضا مما يرتاح له قلبك ويوطد علاقتك به، بعضا من الصفاء والنقاء، من النور، من الحب والإخلاص والإخاء، الأخلاق الحميدة، كان يجب علي ذلك، نعم، اذهب بني وتعلم، اروي عطشا وغذي عقلا، جد من يجيب على أسئلتك علك تموت مرتاحا، قانعا بما تعتقد مجاهدا من أجله، لكن عدني، عدني بني أن تعود باكرا، أن تعود سالما، أن تحافظ على حياتك..

نظر إليها الفتى وهو لا يصدق ما يسمع أخذ يحضنها يقبلها ويشكرها، أحبك أمي أعدك، أعدك بكل ما تطلبين، سأتعلم وأعود باكرا، وسأعيد كل ما درست عليك، سينتشر العلم يا أمي في هذا الكوخ الصغير، سيضيئ بنوره القرية.

لجأ الفتى إلى فراشه وهو ينتظر الصباح بفارغ الصبر، أما أمه فقد استسلمت مرة أخرى لأفكارها، تأخذها إلى حيث تريد لا تأخذ هي الأفكار إلى حيث تريد بل الأفكار ما يفعل ذلك، هذا حال الأم.هذا الحال حين لا يجد المستضعفون في الأرض من يهتم لأمرهم.

حل الصباح لم تستطع الأم أن تترك ابنها يذهب لحاله فرافقته، تريد أن ترى المحل الذي يأوي إليه ليدرس، أن تستطيع اللحاق به إذا ما حل طارئ، فوافق وذهبا معا، ولما وصلا تركته وعادت لعملها على أمل أن تعود لأخذه حين يكمل دراسته.

لما عاد إلى المنزل لم تكد أمه تتعرف إليه فقد كان سعيدا جدا، يكتب حروفا وكلمات على الأرض ويقول لأمه هذا حرف كذا وهذا حرف كذا، هذه الكلمة تعني كذا، أما اسمي فيكتب هكذا، لقد تعلمت كثيرا، لقد وصف لي المعلم كبر الأرض رأيتها في صورة يا أمي قال هي خريطة العالم كانت قريتنا كنقطة فيها، كانت كبذور الزرع يا أمي، أنا سعيد بما يحدث أنا أنتظر الغد بفارغ الصبر يا أمي،

لكنني حزين بعض الشيء يا أمي سمعت المعلم وهو يقول عليكم بالقراءة، وأكد على ذلك، لقد تحدث عن آية في القرآن الكريم، قائلا أنها أول ما نزل من

الوحي على سيد الخلق "محمد عليه الصلاة والسلام" وهو يتعبد بغار حراء، لقد قرأها علينا بالعربية، ثم شرحها لكنني لم أفهمها يا أمي، مفرداتها غريبة وصعبة بالرغم من أن المعلم حاول شرحها، كل ما فهمته أن الإنسان خلق من علق، منها قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق) لكنه قرأها بصوت جميل يا أمي لو سمعته يثلج الصدور، ويبعث الطمأنينة في القلوب، يبدد الخوف يا أمي!

فرحت أن كل الناس خلقوا من نفس المصدر يا أمي، خفت أن يكونوا قد خلقوا من غير الذي خلقنا منه، لذلك فضلوا أنفسهم علينا، لكننا متساوون أمام الله هكذا قال معلمي.

يقول معلمي ويؤكد أن علينا القراءة لكن ماذا سنقرأ؟ ليس لدينا كتب، أنا فقط أبحث عما آكله، كيف سأقرأ؟ أمي، لكنني لا أفهم ما يقرأه المعلم من الكتاب فهو يقول أنه بالعربية، ويقول أن هذه اللغة يتقنها العرب، سأسألك يا أمي أنت أكبر وتعلمين أكثر، لمَ لا يأتون إلينا وينقذوننا؟ فنحن نقرأ كتابهم، لمَ لا يعلموننا لغتهم كي نفهم ما يكتب؟ ونقرأه كي نطمئن أكثر، أم حتى هم قتلوا؟ ربما قضوا عليهم يا أمي؟ يجب أن نترك الإسلام كي نعيش، لو كان العرب أحياء لقدموا إلينا يا أمي أظنهم ماتوا!!

ردت: آه ظننت الراحة ستأتي إلي وهي تستحي لأني تركتك تتعلم، لكنها لم تفارقني بعد، أظنها تريد عتابا مني، ذهبت لتتعلم ولم تسأل المعلم عما يختلجك، ما عملي؟ لقد قمت بواجبي بني لا تسألني مجددا، وإلا سأعيدك للبيت لن تذهب مجددا للدراسة!

تفاجأ الولد برد أمه العنيف كان يريد أن يتمرد مرة أخرى ويفرض عليها الإجابة، لكنه تذكر لقد نال ما يبغي، عليه أن يستسلم مبدئيا، ربما سيتحصل على إجابة عن كل أسئلته في يوم ما لذا يجب أن يصبر قليلا.

في اليوم التالي جاء الولد إلى أمه يعانقها فرحا، يقص عليها ما سمعه من المعلم لقد كان يتعلم بسرعة، أمي هلمي أبشرك لقد أخبرني المعلم عن بعض السيرة النبوية أمي كم أحببت "محمد رسول الله"، لقد كان شجاعا، مقداما يا أمي لقد نشر الإسلام في كل مكان من هذه الأرض، أمي لا توجد فقط مدينتنا هناك مدن أخرى وبلدان أخرى تدين الإسلام يا أمي، كم أنا سعيد لذلك، أحسست بالقوة، اعتقدت أننا نحن فقط من يدين الإسلام، وأن لا أحد يعتقد ما نعتقده ما أكثرهم يا أمي!

أجابته: هل أنت الآن سعيد يا بني؟

رد بلهفة: نعم أمي جدا، كم أحببت العلم وكم هو ينير القلوب والطرقات اليوم أصررت أكثر على البقاء على ديني، اليوم علمت أننا كنا أقوى وضعفنا لأننا تفرقنا، هكذا قال معلمي وهو اليوم يريد إعادة لم شملنا، ويقول لن يتأتى ذلك إلا بالعلم.

نعم عليك بالعلم بني لا تنسى ما يقوله لك المعلم أبدا، المعلم هو الأساس بني لو لم يكن المعلم لما استطاعت الأمم بناء مجدها.

مرت أيام والفتى يزاول مدرسته، يتعلق بمعلمه أكثر، وبما يتعلمه أكثر وأكثر، تعرف على أصدقاء كثر، بالرغم من أنه ينقص في كل مرة تلميذ من تلاميذ معلمه، وتمر عليه أحداث أليمة بالطريق وفي مدرسته، فقد حدث أن تعرض للضرب مرة، واختطف بعض زملائه أمام عينيه وهو في طريقه للبيت وكادوا يمسكونه لولا تمكنه من الهرب بعيدا، لكنه لا يريد أن يخبر أمه بذلك يخشى أن تمنعه من الذهاب وهو يريد أن يكمل التعلم، إنه يتحسن بسرعة.

وفي يوم من الأيام عاد الفتى مبكرا، بوجه حزين وكئيب، يريد أن يبكي لكنه يحبس دمعاته، وجد أمه تستعد للذهاب لعملها، أراد أن يخفي ما به خوفا عليها، لكنها أحست به، ضمته إليها، ثم رفعت حاجبيها كأنها فوجئت برجوعه مبكرا وسألته: لماذا عدت باكرا بني؟ ألاتوجد دارسة اليوم؟ أم مللتها؟

ذرف دموعه الحبيسة وأعطاها الحرية أن تنزف من عينيه نزفا فما عاد بحاجة لها، لا قدرة له على حبسها بين أجفانه الرقيقة التي ما عرفت دموع الفرح يوما، بعدما وضع رأسه بثقله على كتف أمه قائلا:

لقد أخذوه يا أمي، أخذوا روحي معه يا أمي، أخذوا معلمي وتركوني للجهل، تركوني للموت، عاد كل الطلبة إلى بيوتهم اليوم، منهم من تعلم قليلا مثلي ولم ينضج عقله بعد ومنهم من لم يبدأ بعد، اليوم عرفت لمَ حل الجهل بيننا، ولمَ عم الخوف بيننا، لا أدري إلى أين أخذوه، لكنهم أخذوه بعدما كبلوه ليلا، سيعم الجهل يا أمي ويبقى الإسلام نكاية فينا لا أصل، سنموت باسمه لكنه ليس فينا، بقاءنا هنا يا أمي سيولد الأنانية والكره والجهل وحتى التبعية، وهذه الأخيرة قال عنها معلمي هي الأسوأ في تاريخ البشرية، لأنها لا تذوب، يجب أن نهاجر يا أمي، أن نأمن على أنفسنا، أن نهرب بعيدا بهذه الأرواح التي تحملها أجسادنا الخالية من الجهد، من الطعام، والمليئة بالخوف والرعب، التي ترتعش دون سبب يجب أن ينتهي هذا الفيلم الوثائقي يا أمي، يجب أن تبدأ حياة جديدة!!

قاطعته وهي تسمع ولا تريد أن تسمع ما يقوله، ليته يكذب اليوم ويقول المعلم مريض قليلا، توعك فجأة، ذهب للسوق أو منحهم يوما راحة: أخذوا المعلم وماذا فعلوا، أتوعدوكم؟ أرأيتهم، أرأوك معه، أتفقدت إن تبعوك؟

لمَ الخوف يا أمي قلت أخذوه ليلا، وكنت معك ليلا، أنسيت؟ لم أعد أخشاهم يا أمي مثلما أخشى الجهل، لقد رأوني مرات ومرات مع أصدقائي الذين لم أحكي لك عنهم، لقد قتلوهم يا أمي!

لقد دخلنا مدينتهم مرة بعدما اختطفوا بنتا من القرية المجاورة يا أمي ويا ليتني لم أذهب، لقد كانوا مدنيين هذه المرة. أخذوها رموها على الطريق وضربوها، كانوا كلهم رجال، وكان البعض يحمل أشياء قال معلمي كانت هواتفا نقالة كانوا يوثقون أفعالهم بها، ضربوها وهي تصرخ يكفي، أرجوكم يكفي!! رموها على الأرض وتداولوا على ضربها كانت بنتا وكانت ضعيفة، نزعوا عنها لباسها يا أمي وفضحوها، كانوا يستهزؤون بها ويضحكون! وفجأة خرج من بينهم شاب سكب شيئا عليها قال صديقي ربما بنزين أو كحول وأشعل النار فاحترقت وهي تصرخ وهم ينظرون، لم ينقذها أحد!!

أحسست بالعجز والفشل، أحسست بأنني جبان يا أمي، لم أستطع حمايتها، كان الكل يضحك، تركوها تشتعل وتفرقوا، لكنني عرفت الذي يحدث، إنهم يتسلون بتعذيبنا ونحن من قبِل ذلك كان علينا أن نواجههم يجب أن نقوى أن نتحد كما يفعلون، أن لا نخاف، يمكننا ذلك!

ليس هذا فحسب ففي يوم من الأيام وبينما نحن عائدون من المدرسة أنا ورفاقي عثمان وبرهان، سمعنا صراخا لامرأة لم يكن عاليا، كان متقطعا ومتألما كأن أحدا يضربها وتحاول أن تكتم صبرها، فأخذنا عصيا من الغابة واقتربنا، رأينا جماعة تقف بجانب نار مكونة من أربعة رجال وآخر يحمل هاتفا ويصور يتفرجون على رجل يحمل عصا محروقة من طرفها ويضرب امرأة بها وهي تحاول الخروج من لهيب النار المشتعل، وبينما هو يفعل ذلك، قدم رجلان يجران امرأة وابنها الصغير ورموها في النار بجانب المرأة الأولى، لم نجد ما نفعله أخذنا العصي التي كانت في أيدينا بعدما اتفقنا أن نصرخ سويا ونهجم عليهم وفعلا فعلنا صرخنا بالرغم من أن خوفنا كان أعظم فنحن فقط ثلاثة لكن فجعتهم من صوت الصراخ وإقدامنا المفاجئ جعلهم يهربون!!

لم نطل الوقوف تقدمنا من النار فوجدنا الكل ميت ويحترق، بل هناك من وُضع قبل المرأتين والطفل في النار،كأنه رجل أو امرأة لم نتمكن من تحديد جنسه فقد احترق، لم نجد ما نطفئ به النار إلا بعض الرمال. دفناهم في نفس المكان يا أمي ومشينا، كم أحسست بالألم حينها، كيف استطاعوا أن يروا شخصا يحترق، كيف استطاعوا حرق الصغير وما ذنبه، كل ما أحزنني أنه كان يتألم، كان يبكي في حضن أمه التي ضمته كأن لهيب النار لن يمسه، لكنه احترق واحترقت!

لم أستطع بعدها أن أتذوق طعما للطعام كل ما هممت أن آكل إلا وشممت رائحة الدخان المنبعث من نار احتراقهم فأعيد الأكل قبل تذوقه، خفت أن أموت من الجوع، لكنني لم أستطع الأكل، لا أدري كم عائلة حرقت وكم عائلة شردت دون أن يعلم بذلك أحد، نار جهنم أشد يا أمي!!

نظرت إليه وصرخت لقد نقضت العهد الذي بيني وبينك بني، عاهدتني أن تعود للبيت، أن لا تفعل شيئا خارجا، أن تذهب للمدرسة وتعود مباشرة، لا تزال صغيرا بني، قد يخدعوك أو يقبضوا عليك، أخشى أن تنال العذاب بني، لن يتحمل قلبي...

قاطعها، وعدتك يا أمي، لكنني لم أعد صغيرا اليوم فأنا أكبر عمري اليوم ستة عشر سنة، تعلمت كثيرا من معلمي، أتدري يا أمي؟ انقسم هذا العالم الكبير إلى فرق، وكل فرقة إلى فرق، وربما آخرها إلى فرق أخرى، وكنا يا أمي أضعف كل الفرق، هذا لا يجوز يا أمي ولدينا أحسن دين وأعظم إله، لقد خنا الثقة يا أمي وضيعنا الأمانة، يجب أن نعود إلى النقطة التي بدأنا فيها يا أمي، إلى القوة، أن نتحد.

ردت: أنا لا أتحدث عن ذلك أجبني عن سؤالي!

حسنا أمي، أنا آسف لكن فضولي أخذني.قبل أن يأخذوا معلمي جاء بعض الرجال إلى المكان الذي ندرس فيه، قالوا أنهم صحفيين صورونا بهواتفهم ونقلوا كيف كنا ندرس والمكان الذي ندرس فيه وأكواخنا الرثة، وأكلنا وقوتنا القليل، وبعضا من أمنياتنا. كانوا منظمين، يرتدون ثيابا جميلة ليست كالتي نلبسها، شقر وبيض، يتحدثون لغة أخرى يا أمي، أروني صورتي كم كانت جميلة لأول مرة أرى نفسي وأنا أتحرك وأتحدث، قالوا هذا تسجيل!!

أكلوا من أكلنا وفي صحوننا الرثة كانوا متواضعين، ولما ذهبوا سألت المعلم عنهم فقال هم من قارتنا وبعضهم من قارة أوروبا وأمريكا جاؤوا إلينا لينقلوا أخبارنا، قال أنه هناك منظمات حقوقية وإنسانية عالمية ستدافع عنا إن رأوا مأساتنا، سألته إن كانوا مسلمين أتدري الذي قاله يا أمي؟ أعلم أنك ستصابين بالفزع، تفضلي مقالي: ليس كل العرب مسلمون يا أمي!

- كيف ذلك أنت تكذب!

ضحك وقال: هه قلت لكي أنت لا تفقهين شيئا وإن أخبرتك أن في غير العرب مسلمون، مثلنا نحن، بأوروبا وأمريكا هناك مسلمون، قولي لا!

ردت: لا المسلمون فقط من دخلوا إليها من بلاد العرب.

- وماذا عنا يا أمي؟ أنحن عرب؟ انتبهي فالعرب ينقسمون كما ننقسم نحن، هناك مسلمون عرب، هناك مسيحيون، وهناك يهود، وهناك يا أمي حتى الملحدين! صحيح القرآن بالعربية لكن لا يعني ذلك أن كل العرب مسلمون، ولم يكن القرآن للعرب وحدهم بل للعالم أجمع، تدين دولهم وتدعي الإسلام في دساتيرها لكنها تحكم بغيره في معظم شؤونها!

ولعلمك يا أمي الأمة الإسلامية ولتحفظي هذا جيدا، الأمة الإسلامية لا إقليم لها، لا حدود ولا جغرافيا، هي أمة تحوي جميع المسلمين من كل المعمورة، من مختلف القارات ومختلف الأجناس، بما فيها نحن وبعض العرب، أما الأمة العربية فهي الأمة التي تتحدث العربية وكل من تحدث العربية فهو عربي.وفي هذا حديث شريف يا أمي، كان المسلمون يجتمعون تحت لواء دولة كبيرة لكنها تشتتت يا أمي، لذلك تفرقوا، يجب أن يتحدوا ليعود المجد، الاتحاد يا أمي!

ستسألين لمَ نحن لسنا في أمان من هؤلاء لماذا هم يقتلوننا، لمَ لا يتعايشون معنا مثلما يتعايش الآخرون، سأجيب يا أمي تبحثين عن السبب الذي يقتلوننا لأجله، سأقوله لك، لأن ديانتهم غير سماوية إنها البوذية، يعبدون غير الله يا أمي، أمي الفراغ يولد الأفكار الغريبة، الفراغ هو ما فعل بهم هذا فراغ الروح كالفراغ الذي نعانيه عندما لا نجد ما نفعله، نبحث عن قوة تمنحنا القوة، عن

كلام يمنحنا القوة، عما نفعله كي نوصف بأننا أقوياء، كي نشبع رغباتنا في حالتيها السلبية والإيجابية، تجديننا نفكر في أشياء لا معنى لها. هكذا فراغ الروح، يجعلك تستبيح كل شيء، تبتدع سلوكيات غريبة، تصدق إن كذبوا عليك، تقتل دون رحمة، تسرق تنهب، ترى نفسك أحق من غيرك في كل شيء وهذا خاطئ يا أمي، لأن هناك أخلاق عامة ربانية تحكم أفعالنا وتضبط تصرفاتنا غابت عن مسامعهم وعقولهم لأن من وصلتهم بقيت بين أيديهم ولم يوصلوها لأهلها.

نعم بني أنت محق، أرى نفسي عندما أجلس إليها، لا أدري ما الذي أفعله عندما أفكر في أمر الموت، كيف طوعت لهم أنفسهم أن يقتلوا، هل لي القدرة على قتلهم إن أقدموا نحوي؟ فمجرد التفكير في قتل أحدهم يخيفني، يذكرني بجلل قتل النفس وتحريم ذلك في ديننا، كان يجب أن يكون هناك من يحمينا.

نعم أمي وجود مثل هذه الغرائب اليوم دليل على فشل المسلمين في التعريف بدينهم، بنشر أخلاقهم.

ردت: نعم بني أنت تتعلم أكثر وتتفقه.

قاطعها: هناك ما أردت أن أخبرك به يا أمي خشيت جدا أن تعرفيه، لكنني سأخبرك به!

ردت: لمَ علي أن أعرف كل هذا؟ أرهقتني بكل هذه المعلومات، لا يا أمي يجب أن تتعلمي، أن تكوني مثقفة وواعية، فالأمهات تربي الأجيال الصاعدة، يجب أن تكوني مسلمة بحق، أخشى عليك يا أمي..

أنت تكبر بني وتتعلم أكثر أنا سعيدة بك، لن أندم يوما أنني بعثتك لتدرس.

نعم أمي لكنني حزين يا أمي، لا مفر، ظننت أن الذين يقاتلوننا من بلد آخر ومن دولة أخرى، أنهم لا يمتون إلينا بصلة، لكنني علمت أنني أموت في وطني، في دولتي، على أيدي عسكرنا، ما الحيلة يا أمي؟

وضعت يدها عليه قائلة: يجب أن نحمد الله على هذه الحياة لا ندري ما الذي يحدث لغيرنا، ربما يأتي يوم ونتمكن من الهرب لبلاد أخرى، لقد فعلها الكثيرون، فقط لنجمع بعض المال بني، علينا أن نصبر قليلا، لكن لا تتبع أولئك الأجانب بني إنهم يساعدونهم، يعطونهم أخبارا عنا، يتجسسون علينا بني، لا تأتمنهم ربما يسيرونك للموت طوعا وأنت لا تدري.

نعم أمي مذ تبعنا بعضهم تعرفنا للطريق، واستطعنا دخول القرية الأخرى تمكنا من تعقب بعض ما يقوم به العادون وإنقاذ البعض، كما أننا تمكنا من تنبيه بعض المدارس من هجماتهم بعدما عرفنا أنهم يتجهون إليها، علمنا معلمي قوة الدفاع عن النفس وعن الغير وعن الحق، فنحن مذ ذلك اليوم يساعد بعضنا

البعض، لم يتمكنوا بعدها من قتل طلبة المعلم، لكنهم آه يا إلهي أخذوه ربما بعدما علموا أنه تمكن من بعث القوة في قلوبنا!

لم يمر اليوم كغيره من الأيام، لقد أصبح الولد حزينا، يريد أن يتعلم أكثر، أن يندمج ضمن المثقفين الواعين القادرين على نشر العلم، لكن المعلم لم يعد لذلك قرر أن يلتحق بالدراسة لدى معلم آخر، وهو ما رفضته أمه، مبررة قولها أنه تعلم ما يكفي، لكنه لم يستسلم، بل خرج للبحث وتركها تنتظره على أحر من الجمر.

ولما عاد الولد سعيدا، تأكدت من أن أحد المعلمين قد قبل تعليمه، وكان حدسها صادقا.

- سأنتقل لمدرسة بعيدة يا أمي قليلا لكن لا تخافي فهي أفضل من التي كنت فيها هي مدرسة للكبار، تمنح الكتب يا أمي للقراء، وتؤهلهم كي ينضموا للجيش، سأكون قويا، سأدافع بكل قوة عن قريتي.

ردت: الطرق لهذه المدارس صعب بني، هم يقصدونهم ليقتلوهم في بيوتهم بدأت أخشى عليك أكثر بني!

- أمي الموت في مدرسة وأنا أطلب العلم خير لي من أن أموت جاهلا، أو هنا أحمي نفسي، ولا أضمن حياة لأولادي وقريتي من بعدي. سأدعو الله يا أمي أن

يعز الإسلام برجل قوي، يمكنه أن يجمع المسلمين كافة، من كامل بقاع الأرض، لقد دعا رسول الله يوما أن يعز الإسلام بأحد العمرين، فأعزه بعمر ابن الخطاب فكان الفاروق.

رأيت بعض المسلمين يا أمي يكرهون الآخر، ويريدون محاربته، حتى لو كان مدنيا، لماذا يا أمي لا ينشرون الصفات الحميدة لهذا الدين، متأكد من أن الغير سيعشقها ويتبناها ويدافع عنها، لماذا يحارب المسلمون أعداءهم كأنهم لا يريدون أن يتقاسموا معهم الجنة، الإسلام يا أمي أن تتمنى الجنة لك ولغيرك، ماذا لو أسلم بعض المسيحيين واليهود يا أمي وحمينا أنفسنا، ونصرنا بيت المقدس جميعا لنصلي فيه يوما؟؟

صحيح يا أمي الحرب ليست قائمة على مسلم وكافر في كل البلاد مثلما هي قائمة عندنا، لكنني أرى أن كل الديانات غير متحدة فيما بينها كالعرب تماما أو كالمسلمين، ففلسطين يا أمي بها المسلمون والمسيحيون واليهود، وحينما قصفت غزة المحاصرة، أتعتقدين أن القصف فقط للمسلمين، لا ليس كذلك؟ فقد رأيت تسجيلا أن كان من بينهم عدة أناس من مختلف الديانات، إن كانت الحرب مصالح يا أمي فما هي هاته المصالح؟

ردت: أنت درست يا بني وتعلم الذي يحدث عليك أن تسأل معلمك الجديد، أخبرتك بكل ما أعرفه.

رد: نعم سأفعل ذلك يا أمي، يجب أن أعلم كل شيء!

زاول الفتى أياما لدى المعلم الجديد، وكان يجلس لأمه كل فترة يحادثها عما يحدث في العالم من أحداث عرفها، لقد كانت منغلقة كل الانغلاق عليه وهو كذلك، وها هي اليوم تجد من يخفف من روعها، بأن العالم كله دماء، من يحكي لها قصصا فاقت بشاعة كل الصور التي رأتها بعينها يوما.

آه يا أمي تعبت فقط وأنا أفهم الذي يحدث، لن يجد العالم المتحكم ما يلهي به المسلمون والعرب بعد اليوم، هكذا قال معلمي، ألهوهم بادئ الأمر بفلسطين بعدما اغتصبها اليهود بوصاية بريطانية يا أمي، ادعى هتلر حاكم ألمانيا يوما أنه أحرق نصف اليهود وترك النصف الثاني ليعلم العالم لما حرقهم، لكنه نسي أن هناك من النصف الأول من هرب لدول أخرى، وأن النصف الثاني قادر على المضي قدما، وانظري يا أمي اليوم اليهود يحاولون بناء دولة على أرض عربية مقدسة تحميهم دول كبرى وتحمي مصالحهم، فهم يقتلون ويغتصبون بطرق أبشع.

صاح العرب والمسلمون أياما وربما أعواما نحن مع فلسطين، فلنحرر فلسطين، فلسطين لنا، أين أنت يا صلاح الدين، وكانت فلسطين تضعف كل يوم ويموت فيها الصغير قبل الكبير، إلى أن انقسمت وصغر حجمها وباتت اليوم مدينتين فقط ملك لأهلها بينهما فصل من الطريق، وسكن اليهود معظم الأراضي وأسسوا دولتهم...

وفي نفس الوقت كانت الدول المستعمرة قد درست هذا الأمر جيدا، لقلة حيلة العرب وانشغالهم بأمور الدنيا، ولكي يغضوا عن فلسطين الطرف دخلوا العراق، فهتف العرب عراقنا، عراقنا، ولما وجدوا أن للعراق نفع كبير وأن العرب تنصاع، دخلوا سوريا، ثم ليبيا ثم اليمن ولم ينسوا السودان حتى مصر وتونس يا أمي ألهو بهم العرب. واليوم، اليوم كي ينسى العرب كل ذلك هاهم يروون لهم قصتنا التي كانت الأبشع عالميا، يصورونا ونحن نموت يا أمي ونحن نصارع الحياة نستعطف الرحمة لكننا رغم كل ذلك كان البعض يستسلم للموت فقط يصرخ بضع صرخات!

آه لو سمعت الخبر الجديد يا أمي العالم خارج هذه القرية لا يقارن بما هو واقع هنا، هناك منظمات وأحزاب ودول متصارعة، بعضها يصارع باسم الإسلام وهو ليس منه في شيء، وبعضها يخون بكل جرأة، والبعض الآخر يموت بكل برودة،

الموت في كل مكان، شعوب غاضبة وسياسات فاشلة، ووعود كاذبة، أسلحة رشاش، دبابات وطائرات حربية، مدافع وسفن حربية، أسلحة مدمرة ومحرمة عالميا، قنابل نووية وأخرى فسفورية، ترمى على العباد بكل عفوية، أخشى أن ينفجر هذا العالم دفعة واحدة، يجب أن نعتزم أن يعود المجد سريعا، سنرحل يا أمي أرجوك فلنهرب بأرواحنا، بعقيدتنا يجب أن نستجمع قوانا في بلد آمن لكن قبل كل شيء أن نعد أنفسنا بالعودة، أن نتعلم يا أمي فالعلم هو غذاء الروح، العلم هو مستقبل الأوطان، أرجوك أمي فلنرحل بما لدينا من مال، هناك قوافل تمضي كل يوم لبلدان مجاورة لتعيش هناك، لتهرب بدينها، فلنكن منهم يا أمي.

ردت: هل أنت جاد بني؟ هل يكفي الذي معنا من مال؟ هل يمكن لأحد أخذنا إلى هناك؟ هل هناك من يعرف الطريق؟

أجل أمي، فمعلمي يؤمن ذلك لعدة أسر ذلك، وعدني أن يخبرني إن اعتزمت بعض الأسر الرحيل أن نرحل سويا سيكلف رجلا بتوجيهنا.

سعدت لهذا الخبر بني فلنعد أنفسنا لذلك.

حل الصباح، استعد الولد للذهاب لمدرسته كي يتعلم ويُعلم معلمه أن أمه توافق على الرحيل، أما أمه فقد استعدت للذهاب لعملها يجب أن تعمل أكثر اليوم فهي تريد أن تجمع ما يكفيها لرحلتها، وفي طريقها لعملها سمعت أن بعضا من

الجنود قد داهموا القرية المجاورة وربما سيحين دور قريتهم عاجلا لا آجلا، فزعت كثيرا لما سمعت، يجب أن ترحل حقا، لقد كان ابنها محقا.

لما عاد أحمد من مدرسته فاجأته أمه بالخبر، حاول تهدئتها لكنها قررت أن يتوقف عن الذهاب للمدرسة لأنها الطريق لدخول القرية وسيكون أول الضحايا، يجب أن يجد حلا لكنه أكد لها أنه سيحتاط لذلك، فوافقت بالرغم من أنها كانت تخفي خوفها الشديد.

مرت أيام ولم يداهموا القرية، فتأكدت أن الخبر كاذب فندمت أنها كادت تمنع ابنها من مزاولة دراسته وهي العامل الوحيد لكونه سعيدا، لكنهم لم ينثنوا عن ذلك بل كانوا يريدون مباغتتهم كعادتهم، فجاءها خبر من أحد السكان أنهم في طريقهم للقرية، وسيبدؤون هجومهم على الأماكن التعليمية في الغابات الكثيفة ومن بين ما ذكر المدرسة التي يتعلم فيها ابنها، كانت مجرد كوخ لكنها اشتهرت كون المعلم مطلوب لديهم!

ذهبت مسرعة تقصد منزلها لتخبر ابنها كي لا يذهب لكنها لم تجده لقد ذهب قبل أن تصل إليه، فما كان عليها إلا أن تلحق به، وفي طريقها إليه سمعت ضجة كبيرة من القرويين الحاملين للعصي والسكاكين المتجهين نحو القرية يقتلون كل من يصادفون في طريقهم فصعدت شجرة عالية كي لا يروها. امتلأت عيناها

بالدموع بما أنهم وصلوا للقرية فلا بد من أنهم تمكنوا من كل من كان في ضواحيها!

نزلت وهي تبكي بعدما اختفى أثرهم، تمشي بسرعة ترمي هموما قاصدة هدفها علها تجد جثة ابنها فتكرمها، وبينما هي كذلك تعثرت في حشائش الأرض فسقطت فكان ما قابلها أسوأ، أفعى سامة تلقتها بضربة قاضية، آلمتها كثيرا حاولت إسعاف نفسها لكنها لم تستطع أخذ العياء منها حظه والهلع، فسقطت أرضا تنتظر الموت المحتم وكلها أسى على ابنها.وفجأة ظهر مع بعض أصدقائه عائدين لبيوتهم لا يعلمون بما يحدث، فوجدها أرضا مع ما بقي فيها من نفس! رفعها لأعلى وعلامات الحيرة والخوف على وجهه: أمي حبيبتي ما الذي جرى؟ كيف أتيت إلى هنا؟ إلى أين أنت ذاهبة؟

ردت: بني لا تذهب للقرية لقد دخلوها رأيتهم لتــوي، أهرب ورفقائك لمكان آمن سيقتلونك بني، رأيتهم كان عددهم كبير، يحملون عصيا وسكاكين كبيرة قتلوا كثيرا من السكان في طريقهم ربما سيحرقون القرية بما فيها، عد بني، أرجوك!!

نعم فلنهرب جميعا وأنت معنا، لكنها لم تنهض من مكانها فسألها ما الـذي حدث لـك أمـي؟ أضـربوك؟ ما بك هكـذا؟ لمَ لا تقفين على قدميك كعادتك؟ لمَ كل هذا التعرق والجفاف على شفتيك؟

ردت بحزن، لا تريد أن تفطر هذا القلب الصغير، لا تريد أن تترك هذا الولد الأعزل، لكن الموت يطلبها رغما عنها: أفعـى قاتلة بني كانت هناك، لم أرها، باغتتني بني..

- أين أمي أرني؟

- لا عليك بني لا أظن أنني سأشفى، سار السم في عروقي أنا أقرب للموت بني، اعتني بنفسك، أنا سعيدة بهذا الموت بني، أحمد الله أنني لم أمت على أيديهم، أحمد الله أنني استطعت إخبارك بوجودهم، أحمد الله أنني رأيتك حيا وظننتك مت قبل قليل، هل سأسأل الله أكثر من هذا؟ سأكون جشعة في طلباتي بني، ارحل بني، ارحل إلى بلدة بعيدة،إلى حيث كنا ننوي، لم تكمل حديثها بعد ورفعت روحها للسماء، لقد فارقت الحياة وتركت الولد وحيدا!

نظر إليها فإذا سبابتها توحد الله رفعها إليه وضمها قائلا: لا إله إلا الله محمد رسول الله..

أراد أن يصرخ بأعلى صوته لكن رفقاءه منعوه، يجب أن يهربوا، أن يحتاطوا، ربما هم قريبون من هنا، ذهب أحدهم مسرعا ليخبر أهل القرية بالخبر، لعله يتمكن البعض من النجاة، والآخر لأهله وأعانه صديقه المتبقي على حمل أمه لدفنها يجب أن يكرمها..

بحث عن مكان آمن بعيدا عن الطريق ليدفن أمه فيه، ذرف دموعا ساخنة وهو يحملها أحرقت خدوده الرطبة زعزعت خوفه الساكن، حركت جأشه الدفين، حفر حفرة ووضعها، سترها بلحافها، ورمى عليها الرمال، ولما أصبحت كالربوة علمها بجدع شجرة ليعود إليها عندما يشتاق لها، عندما تضيق به الطرقات، عندما تكثر أسئلته التي لا تنتهي رغم تعلمه، فهي أمه وهي مدرسته التي لاتغلق أبوابها، توسد طرف قبرها ووضع يده عليه وهو يبكي قائلا:

أشكرك يا أمي، أشكرك على الحياة التي وهبتني إياها، كل الاهتمام والتضحية، أرجو أن تسامحيني، لم أجد مكانا يليق بمقامك يا أمي، أعلم أن للميت حقوق على الأحياء، وأن لي بها وقد حرمت الحياة؟ حرمت حتى البكاء عليك، حتى الحزن، لا يمكنني أن أقيم لك عزاء ولا أن أجد مكانا لدفنك غير هذا، وربما سأحرم غدا حتى من رؤية قبرك هذا!

كان عليك أن تنجبيني في وطن آخر، ينعم بالحرية والاطمئنان، أحسد أولئك الذين يتبعون أنظمة لتحديد النسل وخفض الإنجاب، وهم ينعمون بالأمان والقدرة على كسب قوتهم، وأحسدك على شجاعتك، ولدتني رغم علمك أنني قد أموت في أي لحظة، ربما قد أقتل بين يديك، لكنني أعدك لن أكون كأولئك المستسلمين، سأدافع عن هاته النفس، عن هاته الروح الكريمة، وهذا الجسد الضعيف سأجعله قويا بالإيمان لا بالأكل والشرب، سأدافع عن ديني ووطني، عن قيمي وأهدافي، ما هذه الحياة إلا سببا، ولمَ لا أكون أول الأسباب وأقدسها يا أمي؟

ظل هناك النهار كله وبعده الليل، ولما حل الصباح قرر دخول القرية عله يستعد للهجرة، عله يجد بعض الجيران بخير، عله يطمئن عليهم، يتأسف أنه لم يلحق بهم للمساعدة، بالرغم من أن مأساته كانت أكبر، لكنه رجع عله يجد شيئا كي يأخذه معه، ربما لم يدخلوا بيته.يجب أن يذهب من هنا، أن يطيع أمه التي أتعبها ولو لمرة، أن يعيش فترة لأجلها، كي يدعوا لها، ويثمر نسلها.

مشى قليلا ولما وصل للطريق المؤدية للقرية بدأ يخفف من خطاه خوفا، فسمع بعض الأنين في كوخ صغير، أطل من بين الجريد المحاط به فوجد امرأة تحتضن

صغارها وقد ذبحوا تلطخ جسدها بالدماء، دخل والخوف يملأ قلبه، نظرت إليه وهي ترتعش قائلة: لا تقتلني أرجوك!!

أشارإليها بيده أن أمان، تقدم نحوها وهو خائف، لقد كان خائفا أكثر منها فمنظرها مخيف أكثر وحالتها، قائلا:

- لا تخافي، ثم نزع ما كان بين يديها وساعدها لتقف،كان يريد أن يهدئها، لا تخافي لست منهم، أنا من سكان القرية، هل أنت بخير؟

أجابته وهي تبكي: أنا بخير لكنهم غدروا بنا باغتونا قتلوا الكل!

سألها: هل دخلوا لعمق القرية؟

فأجابته أنهم كانوا رجالا كثر لكنهم قتلوا أكثر، لقد قتلوا أولادها في غيبتها وقد ضيعت حفيدتيها لم تجدهما منذ البارحة..

فسألها: هل غادروا القرية؟

فأجابته: نعم، غادروها أمس، بعدما عتوا فسادا، بعدما قتلوا أولادنا، وكبارنا، بعدما نهبوا قوت أيامنا، ما جمعناه لنسد به جوعنا!

قال في عجل: لا تخافي تعالي معي يجب أن ترحمي هؤلاء الأطفال بدفنهم، سأساعدك، سأبحث معك عن حفيدتيك، ثقي بي.

أسعدها ما حصلت عليه من مساعدة من هذا الشاب، ولما خرجت من كوخها طلبت منه أن يذهب معها للاطمئنان على أهل القرية فقبل.فوجد جمعا من الناس يستعدون لدفن الجثث التي سقطت أمس، فقررت أن تدفن أبناءها بجنب الجمع فساعدها.وبينما هي تبكي صغارها رأت حفيدتها تقف إلى جانب الجمع خائفة، كأنها فقدت عقلها من هول ما رأت، تقدمت منها فوجدتها كذلك، سألتها عن أختها فكانت تجيب بأن ضربوها، وتشير إلى اتجاه الغابة.

تقدموا باتجاه المكان الذي تشير إليه فوجدوها في حالة يرثى لها تكاد تموت من شدة الضرب والوجع والألم، حملوها وأخذوها إلى كوخ العجوز ليعتنوا بها، أراد أحمد أن يقنعها بالهجرة معه يريد أن يأخذها وحفيدتيها في مكان أمه لكنها رفضت، ألح عليها لكنها لم تقبل، فتركها وأهل القرية وذهب لكوخه جمع حوائجه وهم بالرحيل..

وبينما هو في طريقه قرر أن يزور أمه، أن يخبرها بما يهم أن يفعل، أن يؤنس شيئا من وحدتها في الغابات دفينة، أن يحكي لها ما حل بالقرية، وكيف هي حياته بعدها..

لما وصل جلس أمام قبرها قرأ الفاتحة ودعا لها، ثم تنهد قائلا:

أمي حبيبتي، لو كان بوسعي كنت جمعت ما بقي منك، حملته على كتفي وجبت به المدن لأدفنك في مكان آمن، أعلم أن المكان الذي أنت فيه آمن، لكنني أريدك أن تشتمي رائحة الأمان يوما..رائحة الأرض التي لم ترو بدم يوما، أن أقرأ الفاتحة على روحك الطاهرة، أن أزورك كلما اشتقت لك، أن أسقيك ماء كل فترة، أن أناجيك وأحكي لك الذي يحدث، لكن هيهات، ما كل ما يتمنى المرء يدركه!

ذهبت للقرية يا أمي بعد لقائنا الأخير، بعدما وصفت لي خوفك، فوجدتها أسوأ مما حكيت لي عن قريتك، ليتهم أحرقوها عن آخرها، كانوا قتلوا برحمة بل بسرعة كعائلة صديقي عمر لما كنت صغيرا، كانوا تعذبوا لفترة قصيرة ثم ماتوا، لكنهم تركوا العجز فيها كالوباء، روائح كريهة للموت.الخوف يتجبر على السكان ويلعب بأعصابهم، كل من يمر حولك تخشينه، فيهم من قطعت يده ومن قطعت رجله، ومن جرح، ومن وجد أهله صرعى، ومن ذهب عقله، ومن فر ولم يعد..

ومن نجو كانت حالتهم أسوأ يا أمي، هلعين خائفين مشردين جائعين، أخذوا لهم كل ما يملكون تركوهم للجوع والقلة أكثر من التي كانوا عليها يا أمي.لن أطيل الحديث يا أمي ما حكيته كاف لتتصوري الوصف، أعلم أنك تصفين كل شيء بدقة أكثر مني، نامي قريرة العين في قبرك هذا، لقد اخترته بعيدا عن أيديهم وأرجلهم النجسة!

أنا سعيد كونك لاقيت الله وأنت تعلمين جزءا عن الإسلام والمسلمين، أنك ستكونين رمزا ودليلا لما يحدث هنا في هذا العالم، شاهدا على ضياع الحق، وضعف أهل الحكم والدين، أنك قابلت الموت شجاعة باسمة.

سعيد كون الموت جاءك على الطريق الذي تودين، أني لم أرك وأنت تتعذبين، أني لم أر عجزي عن حمايتك منهم، لقد نجيتني من عذاب قد يلازمني طيلة حياتي، سأواصل المسير يا أمي، سأحفظ حبك في قلبي وكل وصاياك.

حرموا عيني من رؤيتك ما تبقى من عمري، وأملي في منحك السعادة يوما، وحلمي أن أرى البسمة على وجهك الحزين، لكنهم حرموا الصلاة يا أمي ما حرماني منك من حرمانهم من صلاتهم إلا جزء من مليون جزء يا أمي..

فالإنسان يفقد الأهل ويبكيهم لا محالة، لكنه بتقواه يعلم أنه ملاقيهم يوما، وأن الذي أمده بهم له الحق في أخذهم منه، وهو في الحال ذاته يعي أنه يجب أن يكون حب خالقهم سابق لحبهم، فيتمكن الصبر حينها من تهدئة النفس وحنينها بل وما قد تفعله من بدع.

ويعلم أن الموت الذي يأخذ الناس أفواجا أو فرادى لم يسبق حينه ولن يفته، ولن يستطيع صده ولو حاول، وما محاولاتنا إلا طاعة وتبرئة وتخفيفا لذنوبنا، لكن أسبابه لن تمر على فاعليها بسلام، لأن في الحياة قانون يتمكن الناس

من خرقه ماداموا على قيد الحياة، لكنهم لن يستطيعوا الهرب من تصفية حساباته إذا أراد الله سواء كانوا أحياء أم بعد مماتهم.

لقدوجدت بيتنا سالما يا أمي ليتهم خربوه ولم يدخلوا بيت المرأة التي لاقيت، أردت أن أصحبها معي لكنها رفضت. أعلم أنها تخشى أن تعيقني لكنني كنت لأتحمل يا أمي لأنني تحملت أكثر من ذلك هنا، لكنني توكلت على الله وقررت الذهاب، أخذت المال الذي جمعنا سويا، وبعضا مما طبخت وبعض الثياب، لم أنسك أخذت حاجة من حوائجك كي أستنشق عطرها كي أذكرك وأذكر عطفك وحنانك، سأرحل يا أمي لكنني سأعود، نعم سأعود.

بعدما أكمل مناجاته تجهز ولحق بمعلمه الذي وعده بتجهيز سفرته وضمانتها مع بعض الأسر بحرا، ولما وصل تجمعوا وانتظروا حلول وقت السفر وركبوا، كانوا كثر لم يجد الفتى مكانا يتسع له فقد كان القارب مملوء عن آخره!!

نظر إلى البحر بخوف، لم يره من قبل، يا إلهي أهذا هو البحر، كم هو كبير، يجعل الفرد يخشع رغما عنه، كيف سنسير عليه؟ أيمكن لهذا القارب الصغير حمايتنا؟ هل سيتمكن من حمل ثقلنا؟أيوصلنا حقا، ألن ينقلب بنا؟

جلس إلى نفسه ينتظر موعد الانطلاق، ينظر إلى ما ترك وراءه حزينا، يودع ولا يدري ما يودع، جثث الموتى أم جثث تنتظر الموت، يذرف دموعا يتساءل عما هو آت، يناجي أمه عله ينسى ما هو فيه يصف ما تراه عينه وما تحسه نفسه:

"لم تكن أرض الله فقط واسعة يا أمي بل بحره أيضا، أكبر من الأرض بعدة مرات، لا يمكنني رؤية حد من حدوده يا أمي غير الذي أقف عليه، وكم كان طويلا، أكنت تعتقدين أن من كان على الأرض فقط ينجوا؟

لا ليس كذلك، فهذا البحر يا أمي كبير جدا ومخيف يخشاه الجبابرة يا أمي، يقسوا كما تقسوا ، فحرارة الأرض وخلوها من مصادر المعيشة نفسه الغرق في البحر يا أمي، لكن جمال البحر لا يضاهيه جمال صباحا، فهو الجمال المخيف، أيمكنك جمعهما؟

عليك ذلك ليتك معي لتريه، حزين أنا لما يحدث كثيرا يا أمي، فقد رأيت البحر وهو يلتهم الجثث دون رحمة. لقد كان الازدحام على القارب كبير، قررت التراجع مرارا لكنني ركبت، لم أستطع الرجوع، أحسست أن الحلم من وراء البحر أقرب للتحقيق..

تذكرت قصة طارق بن زياد وهو يخطب خطبته الشهيرة لجيشه قائلا العدو من أمامكم والبحر من ورائكم، لكنني كنت أختلف عنهم يا أمي، فقد كان العدو

من ورائي والبحر من أمامي يا أمي، لا جنود معي، ولا قائد لي يقوي عزيمتي غير كلماتك، وأنت تصارعين الموت، هاجر بني! كان علي أن أتحدى البحر، أن أقطع أمواجه الثائرة، دون سيف أو سلاح، أو التقدم للموت المحتم على أيديهم القاسية آبى أن يرمى جسدي ويهان وأنا قادر على حمايته.

لدي اليوم فقط مجلس لا يسعني على قارب مخيف أنا أستعد لركبه، أنا أترك الوطن، كانت خيارات صعبة يا أمي، حمدت الله أنك لم تكوني معي رغم رغبتي في ذلك، كيف علي أن أقول اركبي هذا القارب معي، وتلقي الموت في عرض هذا البحر، كيف علي أن أقول تمسكي يا أمي لا يمكنني السباحة إن غرقنا سنموت هنا، في هذا البحر الذي لا يعود منه أحد!

ركبت القارب يا أمي وكنت حينها معدما من كل شيء، سوى ما كان على جسدي من لباس ووشاحك الذي تلثمت به أمنا من هواء البحر البارد. لكن قلبي يا أمي فقد كان مشحونا بالمشاعر التي تبتهل إلى الله، فقد كان قلبي مفتوحا كذاك البحررغم الحزن الشديد، خشيت أن أموت وأنا على ذاك الحال، يغمرني الفرح الكبير والخوف الكثير كل المشاعر اختلطت لكنني حاولت جهدي إيقافها بالابتهال بعدما تذكرت أن الموت حق، وأنني مهما عشت سأموت، بعدما تذكرت أنني قاومت كي أعيش، بعدما تذكرت أن ما أخشى عليه معي ويسكن قلبي،

كنت أدافع عن ديني عن عقيدتي وها أنا ذا أحملها معي، جلت بها الأرض الواسعة وها أنا ذا أعبر بها البحار أركب المخاطر. سأصلي وادعوا الله من وسط البحر، كان باستطاعتي دعوته فقط وأنا وسط الغابات وعلى جبل ليس بعال وها أنا اليوم أدعوه من عمق البحار، وحولي الخائف والجبان، التقي والورع، المجاهد والمجتهد، العالم والمتعلم..

لما حل الليل يا أمي كان الوضع أسوأ، فقد اختلط لون السماء بلون الماء، وانعكس ضياء النجوم عليه، فأصبحت النهاية لا ترى، كأننا نمشي على سماء الليل، والأمواج تتعالى بقربنا قليلا قليلا فيميل القارب ويعلوا صراخ الأطفال الذي يبكيني، ويسقط في كل مرة أحدنا، كقصة ذاك الفتى الذي كان يرمي فتات الخبز ليكون دليله في الرجوع لبيته من الغابة فأكلتها الطيور ولم يعد، كان قاربنا كذلك يرمي الجثث يا أمي ليعود عليها لكنها لم تبقى فقد أكلتها الحيتان الكبيرة وعاد ما عاد منها للشاطئ ميتا ولن يجد القارب دليله للرجعة.ففي كل الحالات لن يتمكن من العودة على نفس الطريق هكذا المسير على البحر، لم يكن هناك اتفاق تام بيننا فالكل ينادي نفسي، نفسي! كأنه يوم الحشر يا أمي، وكل حركة خاطئة يا أمي تكلفنا، فردا، اثنين أو ثلاثة!

حبذا لو عدنا، لكن الرجعة يا أمي أصبحت كالذهاب وإكمال الطريق، كلها خطرة، فما قطعناه قارب ما سنكمله سيرا، علينا المواجهة..

أنا آسف يا أمي على مقولتي هاته لكنني تألمت جدا مما رأيت، أمي الحياة قوة لا استسلام، رأيتهم وهم يستسلمون للموت كأن طعم الموت بالبلادة والجبن لذيذ، لكنه لم يكن كذلك يا أمي، فأنا أموت كل يوم بوحدتي لكنني أستجمع قواي لأتغلب على حزني.لا يمكن للحزن أن يهزمني مادمت أعلم أن القوة للواحد القهار، الخالق الجبار، وإن كان الموت حق والحياة حق، فأنا صاحب هذا الحق، ولا يمكن لأحد أن يسلبه مني!

حكا لي يا أمي معلمي عن حاكم طاغية في الزمن القديم، أخبرني أنه غير مجرى نهر لأنه كما اعتقد تسبب في مقتل بعض جنوده، وخسارته في حربه، لكنه لم يستطع إيقافه هذا ما فهمته من القصة، فمهما كبرت وعظمت قوتك هناك أمور عظيمة لا يمكنك تحديها كإيقاف مجرى النهر، كالحفاظ على الحياة إذا جاء للنفس أجلها.

نحن هكذا يا أمي نتيه في هاته الأرض بحثا عن حياة، سيغير هؤلاء الأنجاس مجرانا وموقعنا في هذا الوجود، لكنهم لن يتمكنوا من تغيير ما في قلوبنا، سنكون كشجر النخيل يصمد إن رميته أو جذبت جريده رمى عليك ثمرا رطبا حينا

وناضجا حينا آخر.وإن قل الماء رمى بجذوره بعيدا ونما، ولو كان في عمق الصحراء، بل وعلى روابيها يعلوا الاخضرار وجهه رغم اصفرار منبته، وإن قل طيبه أو انتهى عزه يعطينا شرابا لذيذا يروي العطش ويزيل المرض. وإن مات يا أمي يدفئنا بحطبه شتاء ونشعل منه نارا عليها نطبخ غداءنا، هكذا نحن يا أمي صامدون ومهما فعلوا لن يتمكنوا من تدمير ديننا وتغييره.سيبقى النفع فينا جار مادامت الحياة تنبض سيعيش ونعيش مهما قتلوا وذبحوا، وسنفوز يا أمي لكن بالعلم والقوة."

وصل القارب واستوى على الأرض الجديدة، على الحياة الجديدة، نزلوا وجدوا بعض المهاجرين هناك كما وجدوا المساعدات بانتظارهم لقد علم أهل البلاد بأنهم سيأتون وأقبلت المساعدات تمتد إليهم وبعض الخيام ليتظللوا بظلها، أحسوا بالأمان وبعض الألفة، جلس أحمد غير بعيد ينظر ويستفسر..كيف عرف هؤلاء الناس أنهم قادمون، كيف استطاعوا تقديم المساعدات بهذا الكم الهائل، فقد بدأت الأسر تختطف الطعام والمساعدات كأنها حيوانات مفترسة تتصارع حول صيد طازج، دون نظام يذكر، يأخذ الواحد حصته ولا يبتعد واختلطت النساء بالرجال والأطفال تتباكى، وعمت الفوضى!

لم يعتد هاته المناظر البتة، اقترب منه أحد أهل الوطن المستضاف قائلا مرحبا أيها الشاب، لم يسأله لا عن اسمه ولا المنطقة التي قدم منها، بل خاطبه قائلا: نبحث عن عامل يعمل معنا وسط المدينة أراك ذو صحة جيدة وذكاء إن كنت وحيدا فتفضل، فقط بعض الأعمال الزراعية، ألا يمكنك فعل ذلك؟

احتار أحمد لكنه لم يكن ليرفض عملا قد يساعده ليقتات، لكنه قال أمهلني بعض الوقت فقبل.

راح أحمد يتجول بين المهاجرين من قريته ومن غيرها وهم يستقبلون الوطن الجديد، وهم يصارعون الآلام القديمة التي لازالت تلاحقهم وما حل بهم بعدها. الأمراض الجوع التعب فقدان الأهل، تحميل الأمتعة، لملمة الصغار والكبار العجز..

كان عليه أن يقدم بعض المساعدة لمن يحتاجها، أن يجلس ليحاكي أمه في مناجاته، أن يشكو بعض الألم لمن ألفت سماع قصصه، فهو اليوم بعيد كل البعد عنها، تلازمه فقط نصائحها وصورتها وهي تموت وكل خوفها كان أن يموت ابنها.المرأة القوية التي رفضت الموت على أيدي أعدائها وقبلته من أفعى سامة في الغابات، التي دفعت نفسها للموت مقابل ابنها، جلس مهموما حزينا:

"آه يا أمي لم أبكيك يوم وفاتك، فبقي في قلبي حزن عميق يؤلمني أريد أن أبكي أن أصرخ لكنني لا أستطيع، لو رأيت حالنا يا أمي في أرض الله الواسعة، بعدما نجونا من البحر واعتقدنا أننا وصلنا لبر الأمان.نحن نواجه مصاعب أخرى، سمينا لاجئين في أرض الله الواسعة، هي أرض الله يا أمي ليست أراضيهم، بعدما أحرقوا ديارنا يا أمي وقتلونا نسينا، واليوم أراهم يأتون إلينا ونحن في بلاد أجنبية يقدمون لنا المساعدات ويأخذون منا، هناك من باعوا أبنائهم بأثمان رخيصة بكل برود! وهناك مناختطف أبنائهم، هناك من استغلوا، اختلطت الأمور يا أمي..

قدم إلينا صحفيين أكثر يصورونا ويعرضون مأساتنا على قنوات تلفزيونية، تلك التي لم نمتلك مثلها يوما ولن نمتلك. لا أدري لمَ لكن المسلمين يا أمي يهتفون في بيوتهم وعلى الفضاءات التلفزيونية والشبكة العنكبوتية، نحن معكم،نحن معكم،لا نريد للمسلمين ظلما،أتركوهم يعيشون، أنقذوا إخواننا...

اللّٰهُمَّ انصر الإسلام والمسلمين، اللّٰهُمَّ انصر إخواننا المستضعفين في فلسطين والعراق وبورما، اللّٰهُمَّ عليك بالظالمين، كأننا لا نستطيع قول ذلك؟!لكنهم بقوا في بيوتهم لم نرَ منهم أحدا، بعثوا لنا فقط ما نأكل وما نشرب، لم يعلموا يا أمي

أن منا من فزع، من استغل، من جرح، من هرب، من تاه، من غرق، من انحاز عن دينه، من فقد ثقته، من يريد أن يتعلم ويفهم الإسلام أكثر!!

آخ يا حال نحن فيه، وزمن وصلنا إليه...

بقي القارب الذي جئنا عليه إلى هنا فارغا بعدما نزلنا فقد رأيته كم كان صامدا، لقد ساعدنا، لقد كان رحيما أكثر من البشر. استطاع أن ينقذ أكبر عدد منا، كم أتمنى أن يبقى راسيا على هذا الشاطئ كي أعود إليه كل فترة، كي لا أحيد عن طريقي.إن هذا القارب الذي جئت إليه اليوم هونفسه الذي جئت به من الجحيم إلى الجنة، كي أعود به لوعيي..

هطلت الأمطار وبللتنا كانت غزيرة هطلت لأيام، أصبحنا كالثياب التي تنتظر الحبل كي تجف، كأن الطبيعة أيضا غاضبة علينا. احترت يا أمي فهناك أطفال كثر وعائلات كثر، منها من هاجر برا قطعوا مسافات كبيرة راجلين محملين بالأثقال تورمت أقدامهم ونقص منهم الكثير بين الجبال والغابات ليصلوا القوارب ويتعذبوا من جديد.ومنهم من هاجر بحرا مثلي لكننا التقينا، وبعضنا ذهب في جهات أخرى غير التي نحن فيها، لكننا نتشابه عند أهل الأرض في تسميتنا نحن "لاجئين"!

أنا سعيد أن هذا الكم الهائل من وطني قد نجوا من مجازر محتمة عليهم، أن نجوا من الاضطهاد والتعسف، لكنني حزين أنهم قد يكونوا نجوا فقط بأنفسهم لا بدينهم الذي قتلوا بسببه!!

أنا اليوم في بلاد غريبة، كل شيء فيها مختلف سأذهب للعمل اليوم، لكنني لن أنسى الذي جئت من أجله."

دخل أحمد وسط المدينة مع من طلبه للعمل كان كالمعتوه، لا يصدق ما يرى، إنه عالم آخر، كأنه دخل كوكبا آخر لا بلدا. كان عليه أن يحمل الأثقال، أن ينظف، أن يعمل بدوام كامل، أن لا ينام، لكنه لم يكترث لأنه استطاع أن يغفو لفترة، أن يغمض عينه دون خوف، أن يتنفس هواء نقيا، أن يخرج متى شاء، أن يشاهد التلفاز، أن يسمع الأخبار، أن يقرأ الصحف، أن يتحدث للناس، أن يشعر بالأمان، أن يكسب قوته، أن يجد ملجأ سكنا ليس كالذي كان يأويه، أن يقرأ كتبا ويحمل قلما ويكتب دون أن يخشى أن لا يجد غيره.

حمل ورقة وقلما وبدأ يكتب:

"أمي الحبيبة أول رسالة مطولة أكتبها بيدي على ورق جميل بقلم جديد ستكون لك، آه يا أملي الضائع، حلمي الذي تركته بعيدا، في وطني الجريح، كنت أتحدث إليك فقط يا أمي لكنني اليوم أكتب، أنا أعيش هنا في هاته المدينة الجميلة،

أعمل يا أمي وأدرس بمفردي، تعلمت كيف أدرس في قريتي الصغيرة، وها أنا اليوم أجد لوازم الدراسة، كم كنا محرومين يا أمي، لقد رأيت أطفالا صغارا يذهبون للمدارس في أمان، لهم محافظ وكتب وأقلام، يتحدثون بطلاقة، لهم ألعاب جميلة، وحدائق للترفيه، ومنازل من إسمنت وطين،كبيرة مزينة وجميلة أجهزة تلفاز وإنترنت، ملاه ومحلات مؤسسات مختلفة بطاقات لكل فرد يعيش على هذا الوطن مزارع ومحاصيل.آه يا أمي لم نكن نعتني بوطننا أبدا..

علمت كثيرا عن الحياة يا أمي، لكنهم قالوا أن علينا أن نحدث سببا للعودة، أخبروني أن كل الدول المتطورة والمستقلة اليوم قد مرت بثورة لتصل لما هي عليه، فلقد أحرق هتلر اليهود، وقاتل الأمريكيون الهنود الحمر، وعمت الفوضى فرنسا أثناء الثورة وأهلكت اليابان الحرب العالمية، والاستعمارلعدة دول عربية وإسلامية، وها نحن اليوم نتذوق مما تذوقت عدة شعوب، كأن الأيام تتداول بيننا لا فرق بين وطن وآخر ولو كان ضعيفا، فالحل يا أمي أن نثور دينيا وعلميا، أن نقوم أن نتحد!

لكنني أتأسف لشيء واحد يا أمي فكل هاته الدول التي ذكرت حاربت من أجل الحياة كان عدوها من وراء البحار المحيطة بها أو من غير بني جنسها وخفت الآلام لما عم الألم السكان ووقف الجند الحارس جنبهم، لكننا اليوم نجاهد،

نموت ونحيا بأيدي بني جلدتنا وفي وطننا شردونا يا أمي في دولتنا وقتلونا، ذبحونا، لم يرحمونا، وضعونا في أقدار وأكلونا، سلخونا، لا كما تسلخ الحيوانات بل بطرق ابتدعوها! لم أرَ وحشية مثلها يا أمي حتى في عالم الحيوان!!

رأيت الأسد يا أمي وهو ينقض على الغزال، أتدري كيف قتلها، لم يأكلها قبل أن تموت، بالفطرة يا أمي كلما يمسك حيوانا يقتله بنفس الطريقة لا يتفنن في تعذيبه، يصطاد فقط وقت جوعه وإن شبع يبتعد فتأكل البواقي حيوانات أخرى.لا يمسك الأسد دوما فريسته، بل اللبؤة من يقوم بذلك، على الأسد أن يبدأ الأكل كسيد.إنه ملك الغابة عليه أن يقود القطيع أن يحافظ على النسل، أن يحميه، وتقوم الأم بأعمال منزله حتى الحيوانات تقتسم أدوارها وتحفظها.

لكن ما لحظته يا أمي وما أبهرني أن الغزال يصارع حتى الموت وهو بين يدي الأسد يعتقد بعد كل الجروح التي تصيبه أنه قادر على النجاة فيحاول الهرب حتى يصل الأسد إلى رقبته موقع القضاء عليه ليستسلم للموت لا للأسد. فتساءلت لمَ لا يفعل ذلك بنو البشر؟ أقصد إخواني؟ يستسلمون للموت الذي لم يأتِ إليهم مثلما أتى بعض الدول التي هوجمت بالمدافع والقنابل، برا وبحرا وجوا، حسبي الله يا أمي، فلنرتقي بالدين والعلم!

إليك ما يحدث في هذا العالم الكبير، كنا في قريتنا نبكي ونبحث عن معلم ليعلمنا وفي بلاد أخرى يتصارعون ويتراشقون حول البسملة أيكتبونها في كتبهم المدرسية أم يتنازلون عنها؟ يكتبوها أو لا يكتبوها هلم إلينا بمدرسة فقط، هلم إلينا بمعلم فقط، سنكتبها نحن!!

وفي بلاد أخرى يا أمي ينجون من الكوارث الطبيعية من الأعاصير المدمرة، ونحن، ونحن يا أمي تقام عندنا الكوارث البشرية في محافل متعمدة فنقتل دون رحمة..

وفي بلاد أخرى يا أمي يأكل الفرد الواحد أكثر من وجبة في وقت واحد دون تعب أو جهد يبذل، ونحن، ونحن نبحث عن نصف وجبة يوميا ونقترب للموت ونحن بصدد البحث عنها.

هناك، هناك في أوطان أخرى خرجت الناس حشودا حشودا، أتدري لم؟ أعلم أنك لا تدري، إليك لم، لأنهم يريدون أن تتساوى الحقوق بين المرأة والرجل، وبالحال التي نحن عليها كان علينا يا أمي أن نخرج قرى قرى، أتدري لم؟ لا يمكنك أن تخمني لكنني سأجيبك، كان علينا أن نفعل ذلك لنطالب بتساوي الحقوق بين الرجل والرجل، بين المرأة والمرأة، بين الصغير والصغير، أذلك الذي

يسكن وطني وأحتكم وإياه لرجل واحد أو امرأة واحدة أفضل مني؟ آه، لا زلنا لم نقترب بعد للركب يا أمي يجب أن نلحق أن نتعلم أن نقرأ!

عشت في الوطن الجار يا أمي حينا من الزمن، كم تعبت، كم تألمت، كم عملت!لكنني ما جمعت يستغلون يا أمي، لكنني كنت متعلما لذلك حاولت وحاولت وها أنا ذا على وشك الوصول، أن أكون قادرا على تعليم البعض.

لكنني لم أستطع الضحك يوما ولا الابتسام حتى في المواقف التي ينفجر فيها الناس ضحكا.كلما هممت أن أضحك يدق قلبي بقوة وتنتفض روحي، وأسأل نفسي هل يحق لي أن أضحك مثلهم، أم أن الضحك حرام علي، ربما لأنني لم أألفه يوما.وأتيه في أفكاري ولـما أعود أجدهم أكملوا الضحك وأنا بينهم لا أضحك، أتذكر كل المواقف الأليمة وأستشعر روائح الغابات المحترقة بما فيها، وأسمع صراخ الناس تستنجد، وأحس كأنني في القرية مجددا!

ما فعلته يوما يا أمي كان نافعا، كان علي أن لا أرى شيئا مما رأيت، لكنني سأجعلها دافعا يا أمي لا عاملا محبطا لعزيمتي، أعدك.

ازدادت طلباتي وأنا هنا يا أمي، لما كنت في وطني كنت أتحصل فقط على وجبة أو وجبتين يوميا، وأحيانا على وجبة في يومين.لكنني اليوم أتناول ثلاثة وجبات

يوميا وأشتري الكتب واللباس. ولم تعد لي القدرة عن الاستغناء عن كأس القهوة أو الشاي أو الأعشاب..

لماذا أنا اليوم ألبي كل رغبات نفسي؟ أ لأنه أصبح لدي مال وفير؟

نعم هو كذلك وهكذا تناسى المسلمون قضيتهم، الأنانية والفردانية دخلت أسواق حياتنا، فأصبحت الفجوة التي بين مطالبنا وما نملك كبيرة كلما تطلعنا إلى ما لدى غيرنا، فنعيش حالة من حب النفس والرغبة في اللحاق بالغير وننسى من حولنا.ننسى أن الحياة تشارك، أن الحياة تنازل، أن الحياة كبت للرغبات، أن الحياة مساعدة للآخر، أن الحياة أن تنهض والآخر.

من هنا يا أمي عقدت العزم أن أعيد حساباتي وأن العودة أهم، سنعود كما عاد خير الخلق إلى وطنه، سنعود وإن أبى الظالمون، وإن لم نعد إلى وطننا يوما فسوف نبني أمتنا رغما عنهم.

هذه رسالتي يا أمي أعلم أنك لن تقرئيها يوما، لا ولن ألومك، فقد حرمت العلم يوما، ما أحلاه يا أمي، لو كنت هنا لقرأتها لك.لكنني سأرسلها للوطن حيث سينبعث الأمل، حيث ستقوي عزم الأهل، كنت الوطن يا أمي كنت الأمان، كنت مصدر الأمل، ملء العين وكل شيء، كم أتمنى اليوم أن أعود إلى حيث ظلام الرحم، أخرجتني من الأمان إلى اللا أمان لو كنت أعلم ما يحدث خارجا

ما خرجت، كنت اخترت ظلمة الرحم، حيث لا وعي ولا شعور يحيط بي غير الأمان، كنت مواطنا صالحا هناك، رضيت بكل القرارات التي صدرت منك في حقي، رضيت بكل الأعمال الشاقة، بما مددتني من طعام، أسقط كلما سقطت، وأعمل كل ما عملت، وألهث كلما لهثتِ، منذ كنت صغيرا بل ابن الأسبوع والشهور. لكنك أخرجتني من رحم الوطن، وأنا ابن تسع شهور، كأنني مجرم زج في سجن الحياة، كم أتمنى لو عدت لم تكفنِ تلك الشهور يا أمي، ها أنا ذا في الدنيا لا أرضى بكل القرارات والأحكام والقوانين الصادرة في حقي، وأنا بعمر الشباب، فعدة منها نسبت إلي ظلما لكنهم لم يزجوني في سجن رحمك كمجرم!أنا مواطن صالح يا أمي أريد أن أعيش في أمان في خضم اعتقاد يقويني لا يضعفني، كلما أتذكر يوم تفتح عقلي لما حولي قلت يا الله ما أفضل نعمك علينا. حتى فترة جهلنا التي نمر بها كمرحلة من مراحل حياتنا نعمة نشتاق العودة إليها يوم يضيع الحق، يوم يقهر الضعيف، يوم نشتاق للوطن،يوم يكون الوطن حلم والطريق إليه صعب وشاق، اليوم أنا في الأمان مشتاق للوطن، أبحث عن رحم كي أولد من جديد،كي أكون فيه آمنا فترة، لأقول هذا الوطن، لن أخرج من الوطن رغم الظلام، حرمت رحم الأم ورحم الوطن، لكن لن أترك الحلم الثاني يضيع بعدما ضاع الأول يا أمي، سأصمد إلى أن يستفيق الأهل، وإن لم يفعلوا سأكون

آذان الفجر، سأعلن أن الصباح قد حل، سيستيقظ الجميع رغما كما خرجت من رحم الوطن رغما."

"رسالة إلى الراحلة أمي (الوطن)".

انتهى

حقوق النشر والتوزيع محفوظة